الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة السّانية - وهران-
كلّية الآداب، اللّغات والفنون
قسم اللّغة العربية وآدابها

رسالة مقدّمة لقسم اللّغة والأدب العربي لنيل شهادة الماجستير في إطار مشروع الأدب الإسلامي في الدّراسات النّقدية الحديثة

أسلوب التّرغيب والتّرهيب
في القصّة القرآنية
(سورة هود- عليه السّلام- نموذجا)

تقديم الطّالب:
حميدي محمّد

إشراف:
أ/د/ قدّور إبراهيم عمّار المهاجي

السّنة الجامعية: 2009 / 2010

أسلوب التّرغيب والتّرهيب في القصّة القرآنية
(سورة هود-عليه السّلام- نموذجا)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين
إلى روح أخي طيّب الله ثراه
إلى إخوتي الّذين لم تلدهم أمّي
إلى من تكبّد معي عناء الإنتظار..
رفيقي الّذي لم ولن أنساه.

شكر وعرفان

إعترافا بالجميل لأهله والفضل لذويه، أتوجّه بالشّكر الجزيل والإمتنان العظيم لصاحب الفضل الكبير، الأستاذ الفاضل الدّكتور قدّور إبراهيم عمّار المهاجي، على تكرّمه لقبول الإشراف على هذه الرّسالة، وعلى ما قدّم من توجيهات وملاحظات قيّمة، وما بذله من جهد ووقت، وعلى الرّعاية الكريمة لهذا العمل.
وإلى كلّ من أسهم من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل، أتقدّم بأحلى عبارات الشّكر والإمتنان، فجزى الله الجميع خير الجزاء، ووفّقهم إلى ما يحبّه ويرضاه، والله من وراء القصد الهادي إلى سواء السّبيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة:

إنّنا عندما نتحدّث عن القصّة القرآنية، أو عندما نستخدم كلمة القصّة وننسبها إلى القرآن الكريم، فإنّنا نصدر عن موقف يسلّم بوجود قصّة أخرى يتحدّد بالمقارنة معها مفهوم القصّة القرآنية وأشكالها وأهدافها وأغراضها.

فالفنّ القصصي بأيّ شكل من الأشكال، كان يمثّل شتّى المعارف المتعلّقة بالخلق والتّاريخ الإنساني، والأديان والطّبيعة والعادات والتّقاليد وما إليها، وأنّ السّرد القصصي خاصّية إنسانية يشترك فيها جميع النّاس، طالما أنّ الحكاية وهي العنصر الأساس في القصّة قاعدة ينطلق منها القاصّ في عرضه للحوادث والمشاهد، ونقل الأنباء والأخبار، وأحد الأبواب الّتي يلج منها المتلقّي إلى النّص القصصي.

ولذلك ظلّت القصّة لونا من ألوان التّوجيه والتّأثير، أقرب إلى النّفس البشرية، تستقي مادتها من الحياة اليومية للإنسان، وتنقل تجاربه وخبراته من واقع تلك الحياة. والقصّة بهذا المعنى ولدت مع الإنسان، إذ يندر أن نجد أمّة من الأمم لا يوجد لديها تراث قصصي تحفل به، فهي مجموعة من الأحداث الجزئية الّتي تقع في الحياة اليومية للمجتمع، تمثّل بعض جوانب الحياة فتسجّلها وتظهرها في شتّى وجوهها المختلفة قصد الوصول إلى حقائق إنسانية مختلفة أيضا باختلاف أوجه الحياة ذاتها، دون إغفال لجانب التّثقيف والتّهذيب والإمتاع.

ولئن كانت القصّة تبعا لذلك قد سارت مع الإنسان منذ بداياته الأولى، فإنّ للعرب الجاهليين قصصا تروي أيّامهم، وتصف حروبهم، وتسجّل بطولاتهم، وتنقل لنا طبيعة البيئة الجاهلية السّاكنة والمتحرّكة، وتصوّر لنا دواخل النّفس الإنسانية ونوازعها، كالقصائد الملحمية الّتي كان أبطالها عنترة وعمرو بن كلثوم وغيرهم. وإن كانت الأحداث في هذه النّماذج وغيرها تفتقر للإنسجام والتّماسك دون أن تتلاحم تلاحما عضويّا مع الشّخصية، أو تجعلها مفصلا متحرّكا داخل الفكرة العامّة، حيث تبقى الشّخصية بذلك–وفي أحايين كثيرة– خارج التّدفق القصصي، وتظلّ معقّدة غامضة لا تعطينا الفائدة المرجوة من وجودها في القصّة.

وإذا وجد الفنّ القصصي في البيئة العربية الجاهلية ما يساعده على التّمكن من النّفوس والتّأثير فيها، فإنّ استخدام القرآن الكريم للأسلوب القصصي يعدّ امتدادا للتّراث الحضاري الّذي شيّده العربي في البيئة الجاهلية، وهي نفسها البيئة الّتي نزل فيها القرآن الكريم. وعليه فما مدى اهتمام القرآن الكريم بهذا النّوع من الأساليب(الأسلوب القصصي)؟. وهل جاءت القصّة في القرآن الكريم بنفس الشّكل الّذي كانت عليه في التّراث الجاهلي؟ وما هي الطّريقة الّتي التزمها القرآن الكريم في عرض الأحداث والمشاهد واستنطاق الشّخصيات؟. ثمّ هل كانت القصّة القرآنية تمثيلا للواقع أم تصرّفا في أحداث ذلك الواقع؟ وما هي الأهداف والأغراض الّتي توخّتها في القرآن؟.

توخّيا إذا للحقّ والإنصاف، نقرّ متسلّحين بآراء الكثير من الباحثين والنّاقدين المنصفين في مجال الأدب بأصالة فنّ القصّة في أدبنا العربي–ليس من زاوية المقاييس الفنّية الحديثة– بل من

زاوية القصّة بمفهومها العام[1]. فأمّة يمتدّ تاريخها الأدبي إلى ما يقرب الألفي عام، لا يمكن أن تفتقر إلى هذا العنصر الأساس من عناصر الأدب. عنصر له من الأهمّية في التّأثير في النّفوس واستدارتها ما جعل القرآن الكريم يخاطب مشركي مكّة بكثير من القصص المؤثّر، حتّى أنّ لفظة "قصّة" واشتقاقاتها جاءت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما توجد سورة منه تسمّى"القصص". وقد ساق القرآن الكريم ضروبا من القصّة تتراوح بين القصّة القصيرة والمتوسّطة والّتي فيها ما يشبه القصّة البالغة الطّول، يوضّحها الدّكتور أحمد الشّرباصي بقوله: "القصّة القرآنية قد تتراوح بين الإطناب المناسب والمتوسّط والإيجاز وقد يأتي ذلك في قصّة بعينها، يذكر القرآن منها نمطا فيه تفصيل ونمطا آخر فيه توسّط، ونمطا ثالثا فيه إيجاز، وكلّ نمط منها يتعاون مع الآخر دون تكرار مملّ أو خلل معيب"[2].

مع الإشارة إلى أنّ بين تلك المواقف والأحداث تلاحما وانسجاما متكاملين باكتمال الغرض الأساس الّذي تهدف إليه القصّة القرآنية، وهو إيصال حقائق ومعاني الوعد والوعيد إلى النّفوس بالطّريقة الّتي تألفها، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التّعبير والأسلوب، ثمّ إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة تفصيلا وإجمالا تحقيقا للتّأثير والإقناع. وإذا كان التّأكيد بالنّفي المطلق على وجود معنى يتكرّر في القرآن الكريم في أسلوب واحد من اللّفظ، أو يدور ضمن قالب واحد من التّعبير، فإنّ هذه طبيعة الكتاب المنزّل بكلّ آيه وسوره، جاء ليعيد بناء

---

[1]– أنظر د/ قدّور إبراهيم عمّار المهاجي، مصادر الأدب العربي، جامعة وهران– الجزائر، 1999، ط1، ص:178 وما بعدها.

[2]– مجلّة الأصالة، عدد: 80/79، ص:146.

البشريّة وفق أسس ودعائم مستمدّة من هذا الوحي الرّباني ذاته، لاتتغيّر بتغيّر الأزمنة والأمكنة. فإن هو وجد في النّفوس البشرية مناخا يساعد على تنشئتها ونموّها، كانت الإنسانية بعده سعيدة. بل هو الّذي يصنع هذه النّفوس ويهيّئها لحمل الرّسالة المقدّسة والإنتشار بها في الأرض. وتلك هي وجهة الخطاب القرآني ومقصده. إنّها العبرة والعظة من خلال بعث الحياة في صورة حوادث ومشاهد تحرّكها شخصيات ونماذج بشرية مختلفة وفق صراع داخل مكان محدّد، وزمان قد يطول وقد يقصر حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، إلى أن يحسم الصّراع في النّهاية لصالح طرف يكون في كلّ مرّة هو شخص النّبي.

ولأجل ذلك كانت القصّة في القرآن الكريم من إحدى وسائله الرّئيسية لإبلاغ الدّعوة الدّينية إلى النّاس. وانطلاقا من وضعها المستقلّ عن باقي وسائل التّبليغ الأخرى الّتي احتواها القرآن الكريم في علاقته مع المتلّقي/الإنسان/، فإنّها بقدسيتها هذه تحمل طابعا بشريّا بواسطة بنيتها الخاصّة، ممّا يسمح بوجود حركة فيها تتحدّد على مستوى الخطاب، تنزلها كنصّ من عليائه في اتّجاه الإنسان فتقوده إلى قلب التّواصل، فيضمن –النّص– لنفسه الإستمرارية والدّيمومة.

وقيّام القصّة القرآنية على واقع قد حدث، يشهد به القرآن الكريم، لا تعني في مفهومها اجترار هذا الواقع وتمثيله ومحاكاته بكلّ حيثياته، إنّما هي اقتطاع لحوادث من الماضي، وبعث لها بطريقة معجزة تنقل لنا ذلك الماضي في سكونه وحركته، بمشاهده وشخوصه، وتنقلنا إليه أيضا، فيخيّل لنا وكأنّنا نعيش ذلك الماضي في حاضرنا؛ نرى تلك الحوادث والوقائع الغابرة تتفاعل فيما بينها، وتحرّكها شخصيات امتلكت القدرة على محاورة

الآخر ومحاجّاته، نسمع حواراتها فنأنس لمشاعرها الإنسانية وشطحاتها الإيمانية.
ولمّا كان القرآن الكريم كتاب العربيّة الأكبر وفارس بيانها، نصّا محوريّا تشكّل في مناخ الثّقافة العربيّة من حيث أنّه استوعب ما كان سائدا في الثّقافة العربيّة الجاهلية من مفاهيم وتصوّرات، فإنّ ذلك يفهم منه أنّ الخطاب الموجّه إلى أوّل متلقّي وهو النّبي عليه الصّلاة والسّلام، ومن خلاله إلى النّاس، كان مقصده الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض. وهو مقصد لا يتأتّى للإنسان إلاّ من خلال اتّصاله بالنّص القرآني قراءة وفهما على ضوء تفاعله مع الواقع الثّقافي الّذي نزل فيه وإليه هذا النّص، وجدليته معه.
والحقيقة أنّ الخطاب القرآني الموجّه إلى النّبي محمّد صلوات الله عليه هنا، هو خطاب يرمي إلى صياغة واقع ثقافي جديد، ويهدف إلى صناعة إنسان جديد في صورة مغايرة لتلك الصّورة المألوفة لديه، وأنّه وإن مثّل الواقع الّذي ينتمي إليه، فإنّه في ذات الوقت يعيد تشكيل هذا الواقع من خلال آلياته اللّغوية.
فالطّريقة الّتي نزل بها كلام الله، هي طريقة الوحي بوجود وسيط هو جبريل عليه السّلام، ينقل عن المرسل وهو الله سبحانه عزّ وجلّ إلى المرسل إليه وهو النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فتحدث عملية الاتصال بأدوات تختلف باختلاف المواقف، إن بطريقة الصّوت والصّورة، أو بتوالي صور ومشاهد الأنبياء على مدركات النّبي العقلية والنّفسية، يعرضها الخطاب القرآني في شكل حوادث ووقائع، ويعيشها النّبي الكريم ومن خلاله النّاس كما لو أنّها ماثلة أمام أعينهم. نوعز التّفاعل معها في ذلك إلى السّرد القصصي والطّريقة الحكائية الّتي تبنّاها النّص القرآني في بعض مواضعه.

كذلك إنّ ما جاء به القصص القرآني من أنباء وأخبار، لم يكن مجرّد عرض لحقائق تاريخية مطلقة، أو جمعا لوقائع غائبة في الزّمن الماضي فحسب، بل فيه من عنصر الإثارة والتّشويق ما جعله موصوفا بالحسن[1]، جعل منه القرآن وسيلة تبليغية هامّة في نشر رسالة النّور والحضارة.

وقد تتجلّى أهميّة القصّة في قدرتها على اقتفاء أثر تلك الأمم الغابرة الضّاربة في عمق التّاريخ، والأخذ من مواقفها وأحداثها بما يجلي عن عبرة، وبما يرمي إلى هدف من الأهداف الكثيرة والمتنوّعة، المرتبطة في أفقها بالغرض الدّيني العام، وهو إظهار عظمة الله تعالى، وإبراز قدرته ونفاذ إرادته.

وفي الواقع لم تقف القصّة القرآنية عند حدّ هذا المقصد، سيما وأنّ القرآن الكريم جميعه كتاب دعوة تبنّى فيما تبنّى السّرد القصصي لأخبار الأوّلين، بل ظلّت توجّه اهتمام الإنسان إلى مصير تلك الأقوام بعدما كذّبت رسلها، وكيف كانت عاقبة الّذين آمنوا، تحقيقا لمقصد التّحبيب والتّخويف، أو ما اصطلح على تسميته بالتّرغيب والتّرهيب.

والقصّة القرآنية حينما تعرض لنا حياة الأنبياء الكرام في صراعهم مع أقوامهم، وترسم لنا مسيرتهم الشّاقّة وتصوّر لنا مواقفهم الحكيمة أمام المكابرين من الكفّار والمشركين، وتنقل لنا بصدق تاريخ تلك الأمم الغابرة الّتي توالت عليها دورات الزّمن، دون أن نشعر ونحن ننتقل بالقراءة لها عبر تلك المحطّات من الفصول والمشاهد ببعد المسافة الزّمنية الّتي تفصل بيننا وبين

---

[1]– قال تعالى:(نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين)، سورة يوسف(2).

هؤلاء الأنبياء المكرمين. فإنّما نرجع ذلك للطّريقة التّعبيرية المتفرّدة، والخصائص الأسلوبية المميّزة الّتي طبعتها.
ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدّراسة لتتناول جانبا من الجوانب الفنّية في القصّة القرآنية، الّتي توظّف لتبليغ المقاصد وتأدية الأغراض، ولتوضّح بعض ما ينطوي عليه القصص القرآني من دقة التّصوير وقدرة التّعبير في جانب التّرغيب والتّرهيب، وهو أسلوب يحمل أهمّية كبيرة وقيمة عظيمة في التّوجيه النّفسي والعقلي والسّلوكي. وعند ذاك تراءى لي أنّ المنهج الّذي يمكن أن تعمل وفقه هذه الدّراسة، هو المنهج الوصفي التّحليلي، كونه يقوم على أساس تحديد خصائص الظّاهرة(الأسلوب) ووصف طبيعتها وأسبابها واتّجاهاتها، ونوعية العلاقة بين متغيّراتها، وما إلى ذلك من جوانب تدور حول سبر أغوار الظّاهرة الأسلوبية في القصّة القرآنية، مع تحليل وتوضيح العلاقة الموجودة بين هذه العناصر المشكّلة للأسلوب القصصي، ومحاولة الكشف عن الرّابط بينها.
ومن ثمّ انتظمت هذه الدّراسة في مقدّمة ومدخل وأربعة فصول، وخاتمة حوت أهمّ النّتائج المتوصّل إليها. وقد أشرت في المقدّمة إلى التّعريف بالقصّة القرآنية، وامتداداتها في الموروث الإنساني، وقد استندت في ذلك إلى كتاب "مصادر الأدب العربي" لصاحبه الدّكتور: قدّور إبراهيم عمّار المهاجي، والّذي وجدت فيه ما يفي بهذا الغرض. في حين تطرّقت في المدخل إلى إمكانية تحقيق الموضوعية في القصّة القرآنية من منطلق أنّ التّحليل المنطقي للقضيّة يركزّ على بنيتها الخاصّة ممثّلة في الاتساق والانسجام.
أمّا الفصل الأوّل فقد أوردت فيه علاقة القصّة القرآنية بعنصري التّرغيب والتّرهيب، وكيف شكّل الصّراع بين الإيمان والكفر

على ضوء الجدل بين النّبي وقومه لحمة هذا الأسلوب في القصص القرآني. بينما تناولت في الفصلين الثّاني والثّالث، العرض القصصي لقضيّتي التّرغيب والتّرهيب، ممثّلا في تلك الطّريقة المتفرّدة الّتي انتهجها القرآن الكريم من خلال القصّة في تبليغ مقاصده ومراميه، وقد وجدت في ظلال القرآن والتّصوير الفنّي في القرآن لسيد قطب–رحمه الله– ما يساعدني على تحديد الخصائص العامّة لهذا الأسلوب في سورة هود عليه السّلام– عنوان الفصل الرّابع– من حيث أنّ التّرغيب والتّرهيب يشكّلان ثنائية ضدّية متكاملة الدّلالة في هذه السّورة. وأودّ هنا أن أشير إلى أنّ موضوع الرّسالة يقتضي الإلمام بكلّ ما ورد في القرآن الكريم من قصص، غير أنّ الدّراسة من موقع الكثرة تكون متشعّبة ومستعصية. لذلك ركّزت في جانب هامّ من الرّسالة على قصص الأنبياء الّذين ورد ذكرهم في سورة هود، مع أنّ جلّ الدّراسات والمراجع الّتي تناولت موضوع القصّة القرآنية تكاد تلتقي في نفس النّقاط، خاصّة تلك المتعلّقة بالأهداف والأغراض. لذلك شكّلت لي هذه القضيّة نوعا من الصّعوبة أثناء تناولي لهذا البحث، فأرجو عدم المؤاخذة.

مدخل:

إنّ القصة القرآنية تمثّل أحد الينابيع والأصول المساهمة في بناء وتأسيس الثّقافة العربية الإسلامية، من حيث أنّها تشدّ العقل وتغذّي التّفكير وتعمّق الخيال وتوسّع من دائرة التّأمّل، فتكون نتيجة تلك الفاعليات الذّهنية بلورة الوعي النّظري في أبعاده الدّينية والفلسفية والعلمية والفنّية.

وقد ترجم هذا الوعي بأبعاده تلك في ظهور عدّة علوم: كعلوم الحديث والتّفسير والكلام والتّصوف والتّاريخ... وحضور القصّة القرآنية كقاعدة معرفية في بناء هذه العلوم أضفى عليها هويّتها الإسلامية، فهي علوم وليدة تجربة تاريخية زمنية موصولة بأفقها الغيبي؛ بما قبل التّاريخ.

وما يجعلها كذلك هي القصّة القرآنية على وجه التّحديد، إذ لا يتّضح تفسير القرآن وشرح السّنة، ولا يمكن تحديد تصوّر إسلامي للتّاريخ، ولا تتيسّر عملية فكّ الرّموز الصّوفية واستجلاء حقيقتها إلاّ بالاهتداء إلى القصّة القرآنية وعلى ضوئها.

فهي كائن معرفي حيوي يتحرّك بقوّة وفعّالية داخل فضاء النّص القرآني، وتستقرّ داخل هذا الفضاء كمحتوى مجاور لمحتوياته الأخرى، كالقضايا العقائدية والأحكام التّشريعية والحقائق العلمية، وكأداة لتبليغ رسالة ما إلى البشر.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّه لا ينبغي النّظر إلى القصّة القرآنية على أنّها نصّ مدوّن يتمّ تصريفه وتحويله إلى أثر فنّي بغرض تحقيق المتعة النّفسية، والإستعلاء على الواقع ومفارقة الذّات، بل يتوجّب النّظر إليها كسند معرفي ورافد حضاري، تساهم بفعّالية في نهضة الوعي الإسلامي مؤطّرا في مجموعة من العلوم والمعارف.

وإذا كان دور القصّة القرآنية من ناحية المضمون قد تجلّى في تأسيس العلوم وإثرائها، وإبراز مسحتها الدّينية(الإسلامية)، وطرحها كموضوع للتّفكير والتّأمل العقلي، وكمادة معرفية لصيّاغة المفاهيم وبناء الرّؤى، فإنّ دورها من ناحية الشّكل، مزدوج المهمّة والقيمة: فهو من جهة يحافظ على هويّتها الدّينية(القرآنية)، وتبعا لذلك قدسيّتها. فهي قرآنية بمبناها(سياقاتها اللّغوية وأساليب عرضها) لا بمعناها(كحيثيات ومشاهد ومواقف)، لأنّه بمجرّد إعادة صياغتها وفق التّجربة اللّغوية البشرية- رغم المحافظة على حقيقة مضمونها- تفقد خصوصيتها القرآنية ومن ثمّ قدسيّتها، وكذا فعّاليتها العقلية والوجدانية فضلا عن العملية. وبالتّالي فإنّ الاهتمام بالشّكل هو المنفذ المنهجي والمعرفي للإيغال في أعماق المضمون؛ إذ المضمون بمثابة الجواهر المبثوثة في حجرة مظلمة يتعذّر رؤيتها وبالتّالي التقاطها، والشّكل بمثابة المصباح الّذي يوفّر النّور فيضيء المكان لتتلألأ الجواهر الموجودة به، فيهرع الإنسان لالتقاطها. ومن هنا فإنّ القبض على المضمون لا يكون ممكنا إلاّ بالشّكل، ذلك أنّ أوّل خطوة باتّجاه استثمار القصّة هو قراءتها، والقراءة تمثّل واجهة الشّكل ومظهره، إنّها آلية ممارسة اللّغة من حيث أنّها آلة لإنتاج العلوم. والشّكل من حيث هو أداة في القصّة القرآنية لا ينحصر دوره في النّفاذ إلى المضمون لممارسة عملية فهمه وتفسيره، بل يتجاوز ذلك إلى كونه إطارا نظريّا يقود إلى الكشف عن العناصر والجوانب الفنّية في القصّة لإبراز خصوصيتها القرآنية. والإهتمام بالقصّة القرآنية من ناحية الشّكل، يرفعها من المستوى العلمي إلى الأفق الفنّي، لتنصرف

الدّراسة من تناول المعنى إلى الإهتمام بالمبنى، كونه يصبّ في صميم التّجربة الأدبية.
ومن منطلق كونها لونا من ألوان الدّراسة الأدبيـــة، فـــإنّ ذلـــك يقتضي أساسا تناولها من الزّاوية الأسلوبية اللّغوية، ومن ثمّ فإنّ طابعها القرآني يضفي عليها من النّاحية الشّكلية خصوصية لغويّة يكون فيها القرآن مرجعا لبنائها. وعند هذا الأفق تحديـــدا تثـــار مسألة البحث الأدبي للقصّة القرآنية، للوقوف على الأسلوب الّذي اعتمده القرآن الكريم في عرضه لحيثياتها، ومشاهدها وفصولها.
ولذلك فمقاربة الموضوع تفرض علينا من النّاحية المنهجية ربطه بجانب محدّد من جوانبها، وهو "**التّرغيب**" و "**التّرهيب**" فيهـــا، إذ بقدر ما يعتبران أسلوبين تربويين فـــي تجســـيد الغـــرض مـــن ورودها، بقدر ما يعكسان طريقة وأســـلوبا فـــي الكشـــف عـــن مضامينها، وتبليغ الرّسائل الّتي تتضمّنها، وحصرها في نمـــوذج معيّن يعين- منهجيا- على تحديد أرضية عملية للبحث النّظري.
وقد حاولنا في اختيارنا للموضوع قراءة هذا الأسلوب من خلال سورة النّبي هود عليه السّلام، كونها تتمتّع بجاذبية ســـيكولوجية تثير الوجدان، وتهيئ النّفس للتّلقي والتّقبّل والتّمثّل، إذ النّفس في اندفاعها نحو القصّة وتفاعلها معها، إنّما تفعل ذلك بدافع الخوف من سوء العاقبة، أو الطّمع في حسن الختام.
وعلى هذه القاعدة النّفسية الّتي تتشكّل مـــن الخـــوف والطّمـــع، واللّذان ينصرفان اصطلاحا في السّياق القرآنـــي إلـــى معنـــى التّرهيب والتّرغيب، تتحرّك القصّة باتّجاه مقصـــدها، فتوظّـــف هاتين الأداتين الإجرائيتين لتحقيق المقاصد التّربوية الّتي ترمـــي إليها. وعليه ما سرّ هذا الأسلوب السّحري للقصّة القرآنية، إلـــى

الحدّ الّذي تستبدّ فيه بوجدان الإنسان وتستولي على كيانه وتحاصر وعيه؟ وما علّة تواصله وتفاعله معها؟.
إنّ معرفة سرّ الأسلوب وعلّة التّواصل، تحيلنا بالضّرورة إلى الظّاهرة اللّغوية؛ فالأسلوب لا يكون إلاّ لغويّا، والتّواصل لا يكون إلاّ عن طريق اللّغة. وهو ما يفرض علينا من المنظور المنهجي-للإجابة عن هذا التّساؤل- دراسة القصّة القرآنية من الزّاوية اللّغوية: أي الإنتقال في التّعامل معها من مستوى المضمون-كما أشرنا إلى ذلك سابقا- إلى مستوى الشّكل(من خلال أسلوبي التّرغيب والتّرهيب).
وإذا كان محتوى القصّة هو الّذي يحرّك الوجدان، ويثير التّفس للتّفاعل والتّواصل معها، فإنّ الشّكل هو الأساس، وهو الأصل في عملية التّواصل والفهم(إستنباط العبرة) وتحقيق الإستجابة.
وإذا كان المحتوى هو الّذي يعني الحيثيات والوقائع والمشاهد، وهو الّذي يمنح القصّة صفتها القرآنية، ودلالتها الدّينية التّربوية والأخلاقية، فإنّ الشّكل هو الّذي يعكس البناء الخارجي لها في هندسته الصّوتية، وتصميمه اللّفظي، وتصويره البياني، ومسحته الفنّية والجمالية. وهو بهذه الخصائص البنائية يلوّن القصّة القرآنية بلون أدبي، وبهذا تبدو قرآنية من حيث المضمون والمعنى، وأدبية من حيث الشّكل والمبنى.
وعلى هذا الأساس، فإنّ التّعاطي مع القصّة من النّاحية الشّكلية/اللّغوية/ يكون من الزّاوية الأدبية حصريّا. والأدب في دراسته للقصّة القرآنية من هذه الزّاوية الشّكلية، يتعامل معها باعتبارها نصّا مكتوبا لا خطابا مسموعا، لأنّ النّص من حيث مفهومه، هو أثر معرفي تمّ تثبيته وتدوينه عن طريق الكتابة. والقصّة في انتقالها من فضاء النّص إلى حقل الخطاب تفقد

خصوصيتها كقصّة؛ فتتحوّل إلى حكاية، إذ القصّة تقرأ، ولـذلك فهي أثر مكتوب ومقروء، بينما الحكاية تروى، ولذلك فهي قول مسموع.

إنّ بحثنا في هذا السّياق يتأسّس على العلاقة الموضوعية الّتي تربط الأدب العربي بالقصّة القرآنية، حيث تعدّ بنية مستقلّة بشكلها ومضمونها من منطلق أنّها معطى قبلي سابق على أيّ تجربة أدبيّة بشريّة، إذ لم يتدخّل الأديب بمخيّلته ولا بأسلوبه اللّغوي لرسم ملامحها وأحداثها وشخصياتها. فهي ليست إبداعا أدبيّا بشريّا، بل إنّ الأديب يقترب منها ليغذّي خياله، وينهل من معينها ليعمّق تجربته الأدبية وينمّي قدراته الفنّية.

وعليه فإنّ مراعاة هذه العلاقة الموضوعية في الدّراسة الأدبية للقصّة القرآنية، يبعدنا عن النّقاش والجدل الدّائر والمتكرّر على وجه الدّوام، والإستمرار حول إشكالية القصّة في الأدب العربي بين الإبداع والتّقليد الّتي تتلخصّ في الصّراع بين ثلاثة تيّارات متصارعة: أحدها يرفض وجود الفنّ القصصي في الأدب العربي، وثانيها يؤكّد على وجود هذا اللّون الأدبي في تراثنا بخصوصيته الّتي تميّزه، واتّجاه ثالث يقف موقفا توفيقيّا من هذه الإشكالية[1]. ومن هنا فإنّ العلاقة الّتي تأسّست عليها هي علاقة ذاتية، تقوم على كون القصّة تجربة فنّية أدبية على وجه الأصالة والإختصاص. ومقابل ذلك فالمنشأ القرآني للقصّة والطّابع المقدّس لها يقطع دابر الجدل حول هذه المسألة، ويوجّه مسار

---

[1]– جلّ الّذين رفضوا وجود القصة في تراثنا وردّوها للغرب، هم ممن تأثّروا بالفكر الإستشراقي من أمثال: د/رشاد رشدي و د/ شكري غالي، وطه حسين... وقد أوعزوا ذلك لأثر البيئة في ضعف الخيال عند العرب، ومنه ضعف القصة عندهم. أنظر د/خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفنّي في القصّة القرآنية(منهجها وأسس بنائها)، دار الشّهاب للطّباعة والنّشر، باتنة-الجزائر، ص:68 وما بعدها.

البحث باتّجاه مغاير ومختلف، يجعل من الدّراسة الأدبية للقصّة القرآنية محاولة للكشف عن عنصر جدّة الأسلوب القرآني، وفرادته وتميّزه في التّعبير عن الوقائع، وهو ما يفتح المجال أمام الدّراسة المنهجية والنّوعية للّغة العربية لإثرائها من خلال تفاعل المقدّس مع البشري، وتفعيل وظيفتها الحضارية.

ثمّة حقيقة تفرض نفسها على كلّ باحث في موضوع يتّصل بالقرآن الكريم، ويلامس حقائقه ويقارب قضاياه في مجال من المجالات؛ هي حقيقة وجه الإعجاز فيه. وبالتّالي فإنّ كلّ دراسة في القرآن، ومهما كان نوع الحقل المعرفي الّذي تتحرّك فيه، تتطلّع إلى معرفة دلائل الإعجاز. ومن هذا المنطلق، فإنّ السّائد والمألوف في الأبحاث والدّراسات الّتي تناولت حقائق القرآن واستقصائها، هي الدّراسات العلمية(الفيزياء، الفلك، الجيولوجيا...)، منطلقة من فرضية أنّ الأصل في الإعجاز القرآني هو إعجاز علمي. ومع تزايد الإهتمام بالجانب العلمي في عصرنا، بدأ الجانب الأدبي الفنّي يغيب تدريجيا بعدما كان له السّبق والأولويّة في العصور الإسلامية الأولى لدى المفسّرين التّقليديين[1]. وعند هذا الأفق تجب الإشارة إلى حقيقة أساسية- نسجّلها هنا كأرضية منهجية نرتكز عليها لبحث إشكالية الموضوع- وهي أنّ الأصل في الإعجاز القرآني أدبيّ وليس علميّ، وما يؤكّد ذلك بالبداهة وعلى وجه البساطة، هو أنّ القرآن كلام الله، وظاهرة الكلام تحيل إلى ظاهرة اللّغة.

ومن ثمّ فإنّ النّفاذ إلى الحقائق العلمية في القرآن كمستوى ثان في النّص (مستوى المضمون)، يستوجب المرور بداية من المستوى

---

[1]- مالك بن نبي، الظّاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق-سورية، ترجمة عبد الصّابور شاهين، تقديم: محمّد عبد الله درّاز ومحمود محمّد شاكر، 1986، ص:182.

الأوّل: مستوى الشّكل، إذ القبض على الحقيقة مرهون بمدى فهم الخطاب الّذي يبلّغ عنها، وكشف الثّوب الفنّي الّذي يغطّيها، أي أنّ الحقيقة العلمية يجب أن تكون مسبوقة بالحقيقة اللّغوية.
على هذا المستوى المفصلي، والعلاقة اللّزومية بين الظّاهرة العلمية والظّاهرة اللّغوية، تبرز الحاجة الماسّة إلى الدّراسة الأدبية للقرآن الكريم، ليس فقط للإقتراب من حقائق الإعجاز العلمي على مستوى المضامين، بل للوقوف على الخصوصية اللّغوية(الأسلوبية والفنّية) في عرض الحقائق في المقام الأوّل، لأنّ التّحدي القرآني تحدّ لغويّ كما أشار النّص القرآني إلى ذلك صراحة:﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

كما تكشف حقيقتين أخيريتين: الأولى هي أنّ الإعجاز يتجلّى في "رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كلّ نظم وبيان في لغة العرب، ثمّ في سائر لغات البشر، ثمّ بيان الثّقلين جميعا، إنسهم وجنّهم متظاهرين"[2].
فهذا الضّرب من البيان خارج من جنس بيان البشر ومتجاوز لقوّة وبراعة نظم كلامهم.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(23).

[2]- مالك بن نبي، الظّاهرة القرآنية، المرجع نفسه، ص:30.

والحقيقة الثّانية: هي بمثابة نتيجة مترتّبة عن الحقيقة الأولى، تفيد أنّه: بما أنّ الأصل في الإعجاز القرآني لغويّ، فإنّ الإقتراب والمقاربة الأنسب للتّعاطي مع النّص القرآني هي المقاربة اللّغوية الأدبيّة.

ومن منطلق هذا التّمفصل المنهجي بين المقاربة الأسلوبية الأدبيّة للنّص القرآني، أردنا دراسة الصّورة الأدبيّة للقرآن الكريم للوقوف على مناحي السّر الجمالي والفنّي فيه، بغرض الإرتقاء باللّغة العربيّة من مستواها البشري إلى الأفق القرآني المقدّس، لشحنها بعناصر القوّة والنّهوض فتزداد حصانة ومناعة، لتكون مقوّما حضاريّا مغذّيا للهويّة.

وبما أنّ المنافذ والمداخل إلى النّص القرآني كثيرة ومتنوّعة، ارتأيت الدّخول إلى عالمه من منفذ القصّة، لأنّها أرضية معرفية مناسبة وخصبة للكشف عن المعالم الأدبيّة، والخصائص الأسلوبية الفنّية والجمالية، والتّفرّد البياني. كذلك بما أنّ تناول القصّة القرآنية من زاوية التّرغيب والتّرهيب يحبسها داخل سيّاج نظري خالص لا يتجاوز حدود الشّكل، فإنّ تجاوز المستوى النّظري التّرفيهي، وإنزالها إلى المستوى العملي الوظيفي التّربوي، غير ممكن من دون حصرها في نموذج حيّ حيويّ، ورمز مقدّس يتدفّق بالعبر والدّلالات، ولا يمكن أن يكون هذا الرّمز وذاك النّموذج إلاّ النّبي.

إنّ التّجربة الأدبيّة مع القصّة القرآنية تجربة أصيلة من حيث تعاملها مع منتوج ثقافي ذي أصل ديني خالص. ومن ثمّ فإنّ الوقوف على الصّورة الفنّية والجمالية في القصّة القرآنية ليس مطلبا معرفيّا في ذاته، وإنّما مطيّة ومنطلق لتحقيق نتائج معرفيّة ورؤى منهجيّة، وبالتّالي فهذه التّجربة البحثيّة تفيد في تحقيق

نتيجتين أساسيتين: تتعلّق الأولى بأصالة الأدب العربي، وترتبط الثّانية بتجديده.

أمّا عن المسألة الأولى: فإنّ صفة العربي الّتي يتّصف بها الأدب، والّتي ترتدّ في أصلها إلى لغة الضّاد، جعلتها ظاهرة ثقافية تاريخية، تجاوزت تاريخيتها لترتبط بالمطلق حينما قرّرت العناية الإلهية أن تختارها لتكون أداة للتّعبير عن التّنزيل. فقد نزل القرآن الكريم بها، وهي بذلك لغة القرآن، فارتقت منزلتها إلى درجة القداسة. ومن هذا المنطلق فإنّ تعامل الأدب مع القصّة القرآنية مرتبط بالظّاهرة اللّغوية في الأساس، والّتي تعكس جانبا من سرّ إعجاز القرآن من خلال إحكام نظمه، حيث أنّ ألفاظه تتماهى في معانيه، ومعانيه تتماهى في ألفاظه، ومثل ذلك لا يعرف إلاّ في الصّفات الرّوحية العالية.

هذا الطّابع الرّوحاني للّغة فضلا عن عربيّتها هو علّة قدسيّتها، وهو ما يثير على الفور سؤال العلاقة بين الأدب والقرآن من خلال موضوع القصّة. وهي العلاقة الّتي تؤسّس للتّفكير في إسلاميّة الأدب إضافة إلى عروبته. وبهذا التّأسيس المنهجي والمعرفي تتحقّق أصالة الأدب؛ فما المانع أن يكون أدبا إسلاميّا إذا كان المشتغل به أديب مسلم والبيئة الثّقافية الّتي نشأ فيها إسلامية، وموضوع البحث قضيّة إسلامية. فالقصّة القرآنية بقدر ماهي مادة للدّراسة الأدبية، فهي كذلك استراتيجية معرفيّة وأداة منهجيّة لتحقيق أصالة الأدب العربي.

وأمّا عن المسألة الثّانية؛ والمرتبطة بتجديد الأدب العربي؛ فمن منطلق أنّ كلّ حركة أدبيّة أو فنّية هي حركة متجدّدة بطبيعتها، والّتي يجب أن تساير التّطوّر الفكري والمعرفي الحاصل في الحضارات المجاورة، فإنّ التّجديد في اللّحظة المعاصرة قد أخذ

مدلولات ومسمّيات مختلفة كالعصرنة والحداثة وما بعد الحداثة... وهي مفردات على اختلافها، قد تبلورت في سيّاق إيديولوجي واحد، فرض التّجديد من الخارج، بأدوات ومناهج الآخر. ومن ثمّ فكلّ دعوة إلى التّجديد من الخارج تصطدم بالأصالة، فتكون نتيجة التّصادم ألاّ يتفاعل التّحديث والتّجديد مع الأصالة؛ بل يلغي أحدهما الأخر، فتحصل أزمة في الإبداع.
ومن هنا، فإنّنا نرى في دراسة القصّة القرآنية قاعدة منهجية ووسيلة إجرائيّة لبعث التّجديد الأدبي من الدّاخل، فيكون التّجديد بذلك من جنس وطبيعة الأصيل. وبتحقيق عمليّة التّجديد استنادا إلى المرجعية الدّاتية تتحقق للأدب حصانته المعرفيّة، ولا يكون عند ذاك المستوى أيّ حرج أو خوف من التّعاطي مع المفاهيم والمناهج الوافدة من عالم الآخر.
بهاتين النّتيجتين اللّتين نرجو أن تحققهما الدّراسة الأدبية للقصّة القرآنية، تتحدّد الأبعاد المعرفيّة والمنهجية، للقضيّة الّتي نرغب في بحثها من خلال هذه المذكرة.
إنّ تناول الأدب للقصّة القرآنية من زاوية التّرغيب والتّرهيب، هو دراسة على مستوى الأسلوب للوقوف على الصّورة الجمالية فيها، وبهذا المعنى يكون الأدب أقرب إلى الفنّ منه إلى العلم.
وجوهر الإشكال في الموضوع هو أن التّركيز على الخصائص الفنّية الجمالية في القصّة، يحقّق قدرا من الموضوعية في دراستها. وربّما تبدو للوهلة الأولى أنّ ثمّة مفارقة معرفيّة ومنطقيّة في هذا الأفق الإشكالي، وهي كون الأدب فنّا–وليس علما– من حيث أنّه يكرّس الدّاتية باعتبارها صفة ملازمة للفنون والعلوم المعيارية كعلم الجمال وعلم الأخلاق.

وخلافا لهذا التّوجّه المنهجي، نرى أنّه بإمكان هذه المفارقة أن تتحوّل إلى مقاربة. بمعنى أنّ الموضوعية ممكنة التّحقيق في الدّراسة الأدبيّة، وبالإمكان أن تقترب من الموضوعية في العلم، وأنّ الشّرط العلمي والمنهجي يمكن تحقيقه من خلال القصّة القرآنية خصوصا. وما يعطي رأينا هذا مسوّغا معرفيّا ومبرّرا منطقيّا قول الشّاعر المعاصر إزرا باوند: "الفنون والأدب والشّعر علم، تماما مثلما أنّ الكيمياء علم. إنّ موضوعها جميعا واحد، هو الإنسان والجنس البشري والفرد"[1]. فالتّحليل الوضعي المنطقي للقضيّة يركّز على خصائصها الشّكلية وبنيتها الخارجية ورموزها، والعلاقات الّتي تربط بين أجزائها، للوقوف على حقيقة معناها بالقدر الّذي يعبّر فيه المبنى عن المعنى بدقّة ووضوح. فالدّراسة المنهجيّة الوضعية المنطقيّة بهذه الكيفية أكثر تناسبا وانسجاما مع الدّراسة الفنّية الجمالية للقصّة القرآنية، حيث أنّنا إذا استعرضنا تجلّيات الصّورة الجمالية من تنويع في البدء والإنتهاء داخل النّص القصصي؛ كأن تعرض الأحداث مفصّلة- أحيانا- وتسلك سيرها نحو النّهاية، أو ترد مجملة في بدايتها ثمّ تبدأ في التّفصيل-أحيانا أخرى-، وفصل بين المشاهد داخل القصّة، إلى التّماسك بين عناصر القصّة (الحدث، الشّخصية، الزّمان والمكان، المناسبة،،،)، فالإيجاز والحذف والإطناب في طريقة العرض، والتّناغم في الإيقاع الصّوتي بين الألفاظ والآيات في سياق إبراز الصّورة، فإنّ هذه التّجلّيات والخصائص وغيرها، الّتي تنطوي عليها الصّورة الجمالية للقصّة القرآنية، ترتبط بالظّاهرة اللّغوية بشكل أساسي، وهو ما يفيد أنّ الضّرورة

---

[1]- إزرا باوند:كتابه "صورة الطّبيعة "، نقلا عن: فؤاد كامل "مدخل إلى فلسفة الدّين"، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1984، ص:66.

المنهجيّة لدراسة القصّة القرآنية تقتضي التّركيز على الشّكل. والشّكل في القصّة يقابل–منهجيّا– الشّكل في القضيّة الفكريّة رغم ما بين النّوعين من خصوصيات مفهومية.
إنّ القصّة القرآنية كموضوع للدّراسة، ذات طبيعة دينية بالماهية. وبما أنّ الحقل الأنسب لتناولها–كموضوع فنّي– هو الأدب، فممّا لا شكّ فيه أنّ الموضع يؤثّر في الحقل المعرفي الّذي يحتضنه. بمعنى أنّ إسلاميّة القصّة القرآنية ستمتدّ لا محالة إلى الأدب. ومن هنا تأتي محاولتنا هذه لتلمس إجابة معقولة عن سؤال "إسلاميّة" الأدب فضلا عن "عربيّته". وما حمّسنا على التّفكير في هذا الأفق هو القصّة القرآنية ذاتها كموضوع أدبي، فالطّابع الدّيني الغالب على محتواها ينطلي على بنيتها الشّكلية الخارجية، من منطلق التّداخل والتّزامن بين الفكر واللّغة.
فهدفنا الأوّل من الدّراسة، هو المساهمة في إيجاد منفذ منهجي للدّفع بالأدب باتّجاه التّأصيل الإسلامي له. فإذا كان هناك شبه حسم كامل على عروبته من منطلق أنّ المنتوج الأدبي كان بلغة الضّاد، فإنّ هناك فرقا بين عربية الأدب و إسلاميته، وهو فرق بين الجنس والنّوع بلغة علماء المنطق : فـ "العربية" تحديد لجنسه، و"الإسلامية" تحديد لنوعه. وبالنّوع تتحقّق الهوّية والماهية. وهي هوّية إسلامية على وجه الأصالة وبالطّبيعة. وبالتّأصيل الإسلامي للأدب يتحقّق بعده الرّسالي في الحياة، أي الفائدة العملية في دنيا النّاس، لأنّ كلّ تفكير نظري مهما كان شكله فهو مشدود إلى مطلب عملي واقعي. والقصّة القرآنية أبرز نموذج لهذا التّجلّي.
إنّ بحث سؤال أصالة الأدب العربي يتّصل مباشرة وبشكل مفصلي بسؤال التّطوّر والتّجديد؛ إذ كيف يمكن للأدب العربي أن

يحقّق قفزة نوعية معرفيّا ومنهجيّا بالمستوى الّذي حققته العلـــوم الإنسانية المجاورة له والّتي هي من جنسه، وبالصّـــورة الّتـــي يحافظ فيها على أصالته العربيّة والإسلامية؟. وإذا كان تطـــوّر العلوم مبنيّا على قاعدة الموضوعية، فما المانع من تحقيقها فـــي الأدب؟. وهل الخصوصية الفنّية للأدب تتعارض مع العلميّة؟.

إنّنا نرى في الدّراسة الفنّية والجمالية للقصّة القرآنيـــة، دراســـة موضوعية وإن لم تكن بالخصوصية الّتي تتمتّع بها في العلـــوم الطّبيعية. أي أنّ الدّراسة الأدبيّة للقصّة القرآنيـــة مـــن النّاحيـــة الجمالية، هي دراسة علميّة بمعنى ما.

وانطلاقا من هذه المقاربة المنهجيـــة نـــرى أنّ كلمـــة "ذاتـــي" و"موضوعي" في حاجة إلى مراجعة عميقة ومركّزة. فإلى متـــى يبقى الأدب رهين الذّاتية، ومحاطا بأسوارها؟ بحجّة أنّ العنصر الفنّي فيه عائق أمام العلميّة؟

من خلال هذا التّحديد المنهجي لجوانب إشكالية الموضوع وأبعاده المعرفيّة وآفاقه البحثيّة، نخلص إلى أنّ القصّة القرآنية كموضوع للدّراسة الأدبيّة، والّتي سرعان ما تتحوّل إلى أداة منهجية لتحقيق نتائج فكريّة وعلميّة، هي بقدر ما تخضع للتّحليل توجّه مســـاره باتّجاه الأهداف الّتي رسمناها آنفا. ومن هذا المنطلق نؤكّـــد أنّ دراستنا لموضوع التّرغيب والتّرهيب في القصّة القرآنية، ليست مقصودة في ذاتها، بل تمتدّ إلى الفضاء الّذي يحتضـــنها وهـــو الأدب لوضعه موضع بحـــث مـــن زاويـــة إشـــكالية معيّنـــة.

الفصل الأوّل

علاقة القصّة القرآنية بعنصري التّرغيب والتّرهيب

علاقة القصّة القرآنية بعنصري التّرغيب والتّرهيب:

يعتبر القرآن الكريم دستور هذه الأمّة، والمنبع الأصلي لدينها والمعجزة الخالدة لنبيّها محمّد صلوات الله وسلامه عليه. إستخدم اللّغة العربية بما لها من إمكانات تعبيرية، في أعلى درجات التّأليف والإبداع، لتكون مظهرا للتّفكير ووسيلة للتّفاهم، وأداة توصيل لمراميه إلى الإنسانية كافّة.

فالمتأمّل فيه والمتدبّر له سيجده مليئا بالحقائق الكونية المطلقة، مصدّقا لما بين يديه، ومحدّدا المنهج الأمثل الواجب في السّبيل إلى الهدى.

وقد شمل كلّ ما سبقه من الكتب المنزلة، فتضمّن أخبار الماضين، وتحدّث عن أنباء الغيب والآخرة، وفصل في كلّ ما يتعلّق بالحقيقة الإنسانية في هذا الكون، حيث تناول كلّ موضوع من هذه الموضوعات بوجوه مختلفة من البلاغة والفصاحة والبيان، ممّا أضفى عليه صبغة إعجازية كاملة.

ولعلّ من أهمّ المواضيع الّتي شغلت حيّزا كبيرا في القرآن الكريم، وتحدّث عنها في عدد كثير من السّور والآيات؛ قصص الأنبياء، ووقائع الماضي البعيد الّذي عفّت عليه الأيام مساحة واسعة، حتّى صار الحقيقة الماثلة أمام الأعين، تتأمّلها الأنظار وتتدبّرها العقول وتستأنس بها الأنفس، وتستخلص منها العبرات والمواعظ لتكون معينا للنّاس في سلوك سبيل الهداية إلى الحقّ.

ولقيمة هذا الموضوع، أولى القرآن الكريم أهمّية خاصّة للقصّة، باعتبارها وسيلة من الوسائل الدّالة على وحدانية الله تعالى وثبوت قدرته، وعلى صدق البعث وما يترتّب عليه من ثواب أو عقاب، وعلى صدق الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغه عن ربّه.

وهي أدلّة ساقتها مجمل السّور المكّية بصورة أكثر تفصيلا وبطرق مختلفة، تارة عن طريق الدّعوة إلى النّظر والتّدبّر في خلق الإنسان وملكوت السّماوات والأرض، وتارة أخرى بعرض قصص الأنبياء مع أقوامهم على ضوء الجدل والصّراع الّذي كان بينهم.

ولذلك كانت/القصّة/ ولا تزال باحتوائها على جوانب متنوّعة خاصّة بالإعتبار والإتّعاظ، وبقدرتها على استمالة المخاطبين، على رأس الوسائل الّتي يدخل منها الهداة والمصلحون إلى قلوب النّاس وعقولهم، لكي يسلكوا الطّريق القويم، فيعتنقوا الفضائل ويجتنبوا الرّذائل، ويسلّموا وجوههم لله وحده. وقد كان لذلك الأساس وتلك الغاية، أثر بيّن في مسارها وبنيتها على مستوى الأحداث، وفي الأسلوب الّذي يستعمله القرآن في تصويره لها.

ومن هنا ساق ما ساق من قصص يمتاز بسموّ الغاية وشريف المقصد، وصدق الكلمة والموضوع، وتحرّي الحقيقة، بحيث لا تشوبه شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع، كما اشتمل على طرق شتّى في التّربية والتّهذيب، تارة عن طريق الحوار، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والإعتبار، وطورا عن طريق التّخويف والإنذار، كما نرى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن

شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [1]. والمعنى أنّ في ذكر أنباء القرى الهالكة، تعريض بتحذير المشركين من قريش من الإعتماد على نفع الأصنام، كما أنّ الإشارة إلى استئصال تلك الأقوام الظّالمة فيها دلالة على التّهويل من عذاب الآخرة، اليوم الّذي فيه النّاس مجموعون ليشهدوا جزاءهم، "وقد ثبت تحقيق وقوعه بمجيء الخبر جملة إسمية في الإخبار عنه"[2]، وفي ذلك كلّه آيات يقصد منها العبرة والموعظة.

والقصّة في القرآن الكريم إذ تروي وجها من وجوه الحركة في حياة الإنسان، وتخبرنا بما حصل من أحداث واقعة جرت مع الأنبياء والرّسل وغيرهم من الأمم السّابقة، إنّما لإثبات الوحي والرّسالة، وبيان أنّ الرّسل جميعا قد أرسلهم الله تعالى برسالة واحدة في أصولها، ألا وهي إخلاص العبادة لله، وأداء التّكاليف الّتي كلّف سبحانه خلقه بها. وقد وردت آيات كثيرة تدلّ على أنّ

---

[1]– القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(100-103).

[2]– محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، 1984، ج10، ص:161.

أوّل كلمة قالها كلّ رسول لقومه، هي أمرهم بعبادة الله تعالى، ونهيهم عن عبادة أحد سواه، فنوح عليه السّلام يقول لقومه كما حكى القرآن عنه: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1]، ويقول هود عليه السّلام لقومه:﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [2]، فصالح عليه السّلام لقومه:﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[3]، وشعيب عليه السّلام لقومه:﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[4]، فهذه الجملة الكريمة حكاية لما وجّهه هؤلاء

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(59).

[2]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(65).

[3]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(73).

[4]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(85).

الأنبياء لأقوامهم من إرشادات وهدايات، إذ قالوا لهم بكلّ لطف وأدب: أعبدوا الله وحده لا شريك له، فإنّه هو المستحقّ للعبادة، أمّا سواه فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضرّا[1].

ويحكي القرآن الكريم هذا المعنى على لسان كلّ نبيّ فيقول:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[2]، أي "أنّ كلّ كتاب أنزل على كلّ نبي أرسل، ناطق بأنّه لا إله إلاّ الله، وأنّ كلّ نبيّ بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضا"[3].
وفي ذلك دلالة على أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنّ ما اشتمل عليه من قصص للسّابقين لا علم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم بها، وإنّما علمها بعد أن أوحاها الله تعالى إليه، وأنّه صادق فيما يبلّغه عن ربّه.
لقد قرّر القرآن الكريم ذلك في مواطن متعدّدة، إذ يقول في أعقاب حديث طويل عن قصّة نوح عليه السّلام مع قومه:﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ

---

[1]- أنظر الإمام محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني، فتح القدير، دار الحديث، القاهرة-مصر، 1997م، ط3، ج2، ص:305.

[2]- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية(25).

[3]- الحافظ عماد الدّين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدّمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت-لبنان، 1406هـ/1986م، ط8، ج4، ص:558.

أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1] ، "وهذا استئناف أريد به الإمتنان(ما كنت تعلمها) على النّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم- والموعظة(فاصبر) والتّسلية(إنّ العاقبة للمتّقين)"[2]. أي أنّ تلك القصّة الّتي قصّها سبحانه على النّبيّ صلوات الله عليه عن نوح عليه السّلام وقومه، لهي من أخبار الغيب الماضية الّتي لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سواه، يعرّف نبيّه الكريم بها عن طريق الوحي الصّادق الأمين، وهذه القصّة وأمثالها ما كان يعلمها النّبيّ وقومه أيضا بهذه الصّورة الصّادقة الحكيمة من قبل هذا الوقت الّذي أوحاها إليه فيه.

كما في القصّة قياس حال النّبيّ محمّدا مع قريش على حال النّبي نوح مع قومه، ليتحقّق له الصّبر على القيام بـــأمر الله وتبليـــغ رسالته[3].

وشبيه بذلك ما قاله سبحانه في أعقاب الحديث الطّويل عن قصّة يوسف عليه السّلام مع أخوته مع غيرهم، قال:﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(49).

[2]- أنظر محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، المرجع نفسه، ص:92.

[3]- أنظر أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التّراث العربي، بيروت-لبنان، 1966، ج9، ص 49.

أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]، فالّذي قصّه الله من أخبار يوسف عليه السّلام، لهو الغيب الّذي لا يعلمه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وأنّ فيه بيانا على عدم وجوده مع يوسف وإخوته حين تآمروا عليه، وأجمعوا أمرهم على المكر به، بل كان الإخبار من الله جلّت قدرته بهدف الإعتبار، وإظهار صدق النّبيّ في دعوى الرّسالة.

ونرى مثل هذا المعنى أيضا، وهو الدّلالة على أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى وحده، فيما قصّه سبحانه علينا بعد حديث طويل عن جانب من قصّة موسى، وعن جانب من قصّة مريم عليهما السّلام.

أمّا بالنّسبة لقصّة موسى عليه السّلام فقد قال سبحانه:﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ

[1]- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية(102).

بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا ﴾[1]، والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى يخبر رسوله محمّدا عمّا قصّه عن نبيّه موسى عليه السّلام، وكيف أوحى إليه بالنّبوة وإرساله إلى فرعون وقومه، ليكون ذلك حجّة على صدقه، وبرهانا على نبوّته، وقد كان ذلك عند الجانب الغربي لجبل الطّور[2]، ولم يكن الرّسول شاهدا على الحدث زمن الوحي، ولكن أخبر بذلك بعد أن خلت بينه وبين موسى أزمان طويلة، لتخويف قوم ما جاءهم رسول قبله[3]. ولم يكن أيضا مقيما في أهل مدين ليعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه، ولم يكن كذلك بجانب جبل الطّور وقت أن نادى الله موسى، وأنزل إليه التّوراة لتكون هداية ونورا لقومه. وأمّا بالنّسبة لقصّة مريم، فقد قال سبحانه خلالها:﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[4].

ومن الواضح أنّ القرآن الكريم قد جاء بهذه القصص، وحكاها بالحقّ والصّدق، لتكون عبرة وعظة للنّاس... ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة القصص، الآيات(44-46).

[2]- جبل الطّور هو المكان الّذي كلّم الله تعالى به موسى عليه السّلام، أنظر(محمّد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت-لبنان، 1402هـ/1981م، ط4(منقّحة)، المجلّد الثّاني، ص:436.

[3]- أنظر محمّد علي الصّابوني، المرجع السّابق، ص:436-437.

[4]- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية(44).

ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [1].

كذلك من أهداف القصّة في القرآن الكريم، تثبيت فؤاد النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وتسليته عمّا أصابه من قومه، وتبشيره بأنّ العاقبة الطّيبة ستكون له ولأصحابه... أمّا تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السّابقين، فنراه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]، وقد جاءت هذه الآية الكريمة في أواخر سورة من سور القرآن الكريم الزّاخرة بقصص الأنبياء مع أقوامهم، وهي سورة هود عليه السّلام، مشتملة على قصّة نوح مع قومه، وقصّة هود مع قومه، وقصّة صالح ولوط وشعيب مع أقوامهما، وقصّة إبراهيم مع الملائكة الّذين جاءوا يبشّرونه بابنه إسحاق، كما اشتملت على جانب من قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون وملئه.

وهي السّورة الّتي بيّن فيها تبارك وتعالى "أمورا ثلاثة: الحقّ والموعظة والذّكرى. فأمّا الحقّ فهو إشارة إلى البراهين الدّالة

---

[1]- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية(62).

[2]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(120).

على التّوحيد والعدل والنّبوة. وأمّا الذّكرى فهي إشارة إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصّالحة. وأمّا الموعظة فهي إشارة إلى التّنفير من الدّنيا وتقبيح أحوالها في الدّار الآخرة، والمذكّرة لما هنالك من السّعادة والشّقاوة.."[1].

والمراد من الآية، أنّ كلّ نبأ من أنباء الرّسل الكرام السّابقين، قد قصّه الله تبارك وتعالى على الرّسول الكريم، وأخبره عنه قصد تثبيت قلبه، وتقوية يقينه، وتسلية نفسه ونفوس أصحابه عمّا لحقهم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الحقّ إلى النّاس. سيما وأنّه ما أتى الله الأقوام الّذين قبل قوم محمّد من نبيّ أو رسول يدعوهم إلى العبادة والطّاعة، إلاّ وقالوا له كما قال قومه في شأنه هذا الّذي يدّعي الرّسالة أو النّبوة ساحر أو مجنون، وإن لم يجمعهم زمان واحد أو مكان واحد، بل جمعهم تشابه القلوب، واتّحدت ألسنتهم في هذا القول المنكر، فالتقوا على الكفر والفسوق والعصيان. ولقد جاءه في هذه السّورة الكريمة وغيرها من سور القرآن، الحقّ الثّابت المطابق للواقع، والذّكرى النّافعة للمؤمنين[2].

وفي المعنى دعوة للنّبي صلّى الله عليه وسلّم بأن يعرض عن المشركين من قومه، وعدم المبالاة بمكرهم وسفاهتهم، مع المداومة على التّذكير والتّبشير والإنذار مهما تقوّل المتقوّلون، لأنّ في التّذكير بما أوحى به الله إليه من هدايات سامية وآداب حكيمة، فائدة للمؤمنين، وتأكيد للتّرغيب في الطّاعة.

وشبيه بهذه الآية في تسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا أصابه من أذى، قوله سبحانه:﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن

---

[1]- الفخر الرّازي، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربي، بيروت-لبنان، ط3، ج17، ص:80.

[2]- أنظر القرطبي، المرجع نفسه، ص:116. والصّابوني، المرجع نفسه، ص:37.

قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1]، وقد جاءت هذه الآيات بعد حديث مركّز عن جانب من قصّة إبراهيم وموسى وهود وصالح ونوح عليهم الصّلاة والسّلام. وقوله تعالى:﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[2].

فبعزّته يملي للكافرين بعدما جاء به من آيات بيّنات، ودلائل واضحات، فيأخذهم أخذا أليما. وتلك إشارة واضحة على تكذيب من خالف الرّسول من قومه، ودلالة على ترهيبهم من عقابه جلّت قدرته[3].

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الذّاريات، الآيات(52-55).

[2]- القرآن الكريم، سورة الحج، الآيات(42-44).

[3]- أنظر إبن كثير، المرجع نفسه، ص:651، ومحمّد علي الصّابوني، المرجع نفسه، ص:292-293.

وأمّا دعوته صلّى الله عليه وسلّم إلى الإقتداء بإخوانه الأنبياء السّابقين في صبرهم، فنراه في آيات متعدّدة، منها قوله سبحانه:﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[1]، وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم في الآيات السّابقة عليها وغيرها، أسماء ثمانية عشر نبيّا، وقد هداهم جميعا إلى الطّريق المستقيم، ثمّ أمره بالإقتداء والتّأسّي بهم في طريقتهم إلى الإيمان بالله، وفي ثباتهم على الحقّ[2].

وأمّا تبشيره صلّى الله عليه وسلّم عن طريق قصص الأنبياء السّابقين بأنّ النّصر سيكون له ولأتباعه، فنراه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[3]، وتلك حقيقة أخرى عاشها الأنبياء والرّسل مع أقوامهم، حيث دعوا لهدايتهم فجحدوا آيات الله، وعاندوا الحقّ ودفعوه، فكان موقف هؤلاء الرّسل من هذا التّكذيب والأذى، الصّبر والثّبات،

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية(90).

[2]- أنظر إبن كثير، المرجع السّابق ، ج3، ص:62-63.

[3]- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية(34).

واستمروا على صبرهم وثباتهم حتّى أتاهم نصر الله الّذي اقتضته سنّته وأحكامه الّتي لا تتخلّف. وفي هذه تسلية للنّبي أيضا وتعزية له فيمن كذّبه من قومه، ووعد له بالنّصر كما نصر أولو العزم من قبله[1]، قال سبحانه وتعالى:﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2]، وقال:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

كذلك من أهداف القصّة في القرآن الكريم الإعتبار والإتّعاظ، قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[4]

وهذه الآية الكريمة، هي الآية الأخيرة الّتي ختم الله تعالى بها سورة يوسف عليه السّلام، وقد اشتملت على أحسن القصص،

---

[1]- أنظر إبن كثير، المرجع نفسه، ص:19.

[2]- القرآن الكريم، سورة الصّافات، الآيات(171-173).

[3]- القرآن الكريم، سورة غافر، الآية(51).

[4]- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية(111).

وأحكمه وأصدقه وأشدّه أثرا في النّفوس، ذلك أنّه في قصص أولئك الأنبياء الكرام، وما جرى لهم من قبل أقوامهم، عبرة وعظة لأصحاب العقول السّليمة والأفكار القويمة، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وآداب وإرشادات.

فما كان هذا الّذي قصّه المولى عزّ وجلّ على نبيّه الكريم حديثا مختلقا أو كاذبا، وإنّما هو حديث لحمته وسداه الصّدق الّذي لا يحوم حوله الكذب، والتّأييد لما صحّ من الكتب السّابقة الّتي امتدّت إليها أيدي الفاسقين بالتّحريف والتّبديل، والتّفصيل والتّوضيح للشّرائع السّابقة، والهداية والرّحمة لقوم يؤمنون به، ويعملون بما فيه من أمر أو نهي[1].

ففي هذا الإطار، وضمن كلّ ما يتعلقّ بالمرامي الّتي جاء بها القصص القرآني، تتجلّى العبر والعظات، وتتحدّد عاقبة المؤمنين الّذين ثبتوا على الحقّ وابتعدوا عن الباطل، وتابوا إلى الله تعالى توبة صادقة وشكروا الله تعالى على نعمه، بأن استعملوها فيما يرضيه لا فيما يسخطه، كما نرى نماذج لذلك في قصّة سليمان عليه السّلام الّذي آتاه الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فلم يبطره هذا الملك ولم يشغله عن ذكر الله تعالى، بل قال كما حكى القرآن عنه: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[2]. ونرى نماذج أخرى في قصّة ذي القرنين، الّذي مكّن الله تعالى له في الأرض، فاستعمل ما آتاه الله من قوّة في الخير لا

---

[1]- أنظر القرطبي، المرجع نفسه، ص:277، والفخر الرّازي، المرجع نفسه، ص:227-228.

[2]- القرآن الكريم، سورة النمل، الآية(40).

في الشّر، وفي الإصلاح لا في الإفساد[1]. كما أصحاب الكهف الّذين آمنوا بربّهم، وزادهم الله تعالى إيمانا على إيمانهم بسبب ثباتهم على الحقّ، وقوم يونس عليه السّلام الّذين استجابوا لدعوة الحقّ، وصدقوا نبيّهم فيما أخبرهم به، وأخلصوا دينهم لله تعالى، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾[2]. والمعنى؛ فهلاّ عاد المكذّبون إلى رشدهم وصوابهم، فآمنوا بالحقّ الّذي جاءتهم به رسلهم، فنجوا بذلك من العذاب، كما نجا منه قوم يونس عليه السّلام بسبب ندمهم على ما فرط منهم، وإيمانهم إيمانا صادقا، وتوبتهم توبة نصوحاً، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم في هذه الدّنيا.[3]

كما تتحدّد نهاية المكذّبين الّذين أصرّوا على كفرهم، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم، واستحبّوا العمى على الهدى، وجحدوا نعم الله تعالى واستعملوها في المعاصي لا في الطّاعات، كتلك الّتي نراها في قصّة قارون الّذي آتاه الله تعالى من النّعم ما أتاه، فلم

---

[1]- أنظر الصّابوني، المرجع نفسه، ص:203-207.

[2]- القرآن الكريم، سورة يونس، الآية(98).

[3]- أنظر إبن كثير، المرجع نفسه، ص:530، و الشّوكاني، المصدر نفسه، ص:662.

يشكر الله تعالى على نعمه، بل قال بكلّ غرور وكبرياء ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾[1].

كما نرى نماذج لذلك في قصّة أهل سبأ الّذين قال الله تعالى في شأنهم:﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ ﴾[2]، والمعنى؛ لقد كان لقبيلة سبأ في مساكنهم علامة واضحة على فضل الله، جنّتان عن يمين وشمال... فقال الله تعالى لهم على ألسنة الصّالحين منهم:(كلوا من رزق ربّكم واشكروا له) نعمه، فأنتم تسكنون في بلدة طيّبة فيها كلّ ما تحتاجونه، وقد منحها لكم الله الرّحيم بكم، الغفور لذنوبكم، فاشكروه على ذلك. فأعرضوا عن نصح النّاصحين،

---

[1]- القرآن الكريم، سورة القصص، الآية(78).

[2]- القرآن الكريم، سورة سبأ، الآيات(15-17).

وجحدوا نعم الله، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسل الله تعالى عليهم السّيل المدمّر، وتحوّلت البساتين اليانعة إلى أماكن ليس فيها سوى الثّمار والأشجار الّتي لا تسمن ولا تغني من جوع، ذلك بسبب جحودهم وبطرهم. ومن سنّته سبحانه أنّه لا يعاقب بهذا العقاب الرّادع إلاّ من جحد نعمه وفسق عن أمره.

والمتدبّر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرا من قصص الجاحدين، ثمّ بيّن لنا سوء مصيرهم. ومن ذلك أنّه سبحانه بعد أن ذكر لنا جانبا من قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى.. مع أقوامهم، عقّب على ذلك بقوله تعالى:﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]، فكلاّ من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط.. أخذهم الله وأهلكهم بسبب ذنوبهم الّتي أصرّوا عليها ولم يرجعوا عنها. فمنهم من أرسل عليه ريحا شديدة رمته بالحصاة كقوم لوط، ومنهم من أخذته الصّيحة الشّديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب عليهم جميعا صلوات الله، ومنهم من خسف به الأرض وهو

[1]- القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية(40).

قارون، ومنهم من أغرقه كما فعل مع قوم نوح ومع فرعون وقومه. وما كان الله تعالى مريدا لظلمهم، ولكنّهم هم الّذين ظلموا أنفسهم، وأوردوها موارد المهالك بسبب إصرارهم على كفرهم وجحودهم[1].

كلّ ذلك يؤكّد سبق القرآن الكريم في جعل القصّ أداة من الأدوات الرّئيسية في عملية التّبليغ، لما لها من تأثير عظيم انطلاقا من تأديتها للهدف الدّيني من جهة، ووجود تلك اللّمسة الفنّية فيها، كأداة مقصودة للتّأثير الوجداني ومخاطبة الفطرة من جهة أخرى.

ومن ثمّ اتّسع مجالها في القرآن الكريم، وكثر تلوينها بالألوان المؤثّرة تحقيقا للتّوجيه النّفسي والهداية إلى الحقّ، ولتأدية أغراض كثيرة مختلفة لم تخرج في مضمونها عن الغرض الأساس وهو المقصد الدّيني.

ولأهمّية هذا الغرض، جاءت طريقة القصّ في القرآن متميّزة عن المألوف، لكي يتلاءم أسلوب عرض القصّة مع الوفاء بحقّ الغرض الّذي سيقت لأجله. ومن ذلك أنّه لا يلتزم في القصّة السّرد القصصي، بل يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية منها.

ووفقا لذلك الإلتزام، نرى من القصص القرآنية ما تقدّم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد، ومنها ما تقدّم في حلقات، يخصّ بكلّ حلقة منها معرض يتطلّب هذه الحلقة من القصّة فحسب، رغم أنّه كثيرا ما يتكرّر موقف مشترك بين الحلقات، من دون أن"يتناقض حدث في حلقة سابقة مع حدث في حلقة لاحقة، كما يتكرّر عرض القصّة الواحدة في سور شتّى من غير

---

[1]- أنظر الصّابوني، المرجع نفسه، ص:461.

أن يهتزّ المسار الفنّي فيها"[1]. ومنها ما ينزل متأخرّا مبنيّا على ما نزل متقدّما، ومبيّنا له وقائما عليه في الفهم، حيث يبدأ القرآن كلّ قصّة في تنزيلها ببيان الأصل الّذي لا يتزحزح، والّذي قامت عليه جميع الرّسالات الماضية، وبنيت عليه كلّ دعوات الرّسل والأنبياء، وهو الدّعوة إلى كلمة الحقّ لا إله إلاّ الله، وإثبات مقتضياتها في النّفس، وهو مبدأ وأصل لا يختلف حوله أحد منهم.

لذلك يبدأ القرآن بذكره وبيانه، ثمّ يبني عليه ما ورد في معارض وسياقات أخرى، تبيّن جواب وردّ كلّ قوم على رسلهم، ثمّ بعد ذلك تأتي النّتيجة والجزاء موافقا لجنس الجواب.

فقصّة آدم عليه السّلام وقد وردت في معارض مختلفة من سور مختلفة، كلّها في سياق التّذكير بنهاية الحياة ومصير العباد[2]، جاء فيها قوله تعالى في سورة ص:﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3] إلى قوله عزّ وجلّ في نفس السّورة:﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

---

[1]– د/إبراهيم عوضين، البيان القصصي في القرآن الكريم، مطبعة السّعادة، القاهرة–مصر، 1977، ط1، ص:125.

[2]– قال تعالى في سورة البقرة، الآية(281) (واتّقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثمّ توفّى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)، أنظر إبن كثير، المرجع نفسه، ج1، ص:591.

[3]– القرآن الكريم، سورة ص، الآيتان(71–72).

أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1]، فكان الأصل الّذي انطلق منه القرآن هو تقرير كلمة الحقّ، وإثبات مقتضياتها الّتي تتجلّى في كون الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وهو بذلك مستحقّ للعبادة وحده، وقد قرّر ذلك في الآيتين الأوّليتين، ثمّ بنى عليها ما بعدها، حيث ترجع كلّ الأمور إلى هذا الأصل تقريرا وتأكيدا لها.

كذلك قصّة نوح عليه السّلام، حيث وردت في أكثر من معرض، كان منها ما جاء في سورة القمر، قال تعالى:﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾[2]، حيث ذكر في هذا المعرض عقاب الله تعالى لقومه لأنّهم كذّبوا دعوته، وسخروا منها.

وقد تبيّن ما أجمل هنا في مواضع أخرى، فجاء قوله تعالى:﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ ﴾[3] توضيحا وبيانا للسّبب.

وأمّا ما ذكر في شأن النّبي نوح عليه السّلام مع قومه، فقد جاء في قوله تبارك وتعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة ص، الآية(85).

[2]- القرآن الكريم، سورة القمر، الآية(9).

[3]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(25-26).

فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]، فكان هذا خلاصة جامعة لمسيرة حافلة بالأحداث والمواقف، ذكرت في معارض أخرى بشيء من التّفصيل حسب ما يقتضيه الهدف الأسمى.

كما نجد نموذجا آخر لذلك في قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون، وقد كانت من أكثر القصص المذكورة في القرآن في سياقات متعدّدة وسور مختلفة، باعتبارهما نموذجين حيّين للصّراع القائم بين الخير والشّر، فكان ما ورد في شأنها في سورة الأعراف، قوله عزّ وجلّ:﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2] إلى قوله تعالى في نفس السّورة، ﴿ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[3] تبيانا للأصل،

---

[1]- القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية(14).

[2]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(103).

[3]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(137).

وإبرازا لسنّة الله وفطرته الثّابتة في عباده، يريهم معالم الإيمان ويؤيّدهم بآيات وجوده.

وكذلك ما ورد في سورة النّازعات، قوله سبحانه وتعالى:﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ﴾ [1] إلى قوله من نفس السّورة:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦ ﴾ [2]، فقد جاء عرضها هنا في سياق تأكيد وقوع البعث، وعرض أسبابه ومقدّماته من أوّل السّورة، فبدأت القصّة بالإستفهام غير الحقيقي للتّوكيد والتّقرير، فيكون هذا المعرض بذلك قد أشار إلى كلّ ما تقدّم من معارض أخرى، بنوع من الإيجاز والتّلخيص الشّامل.

واعتبارا من أنّ هذه الخاصية الفنّية الجمالية/الإيجاز والتّلخيص/ في الأسلوب القرآني، أداة مقصودة للتّأثير الوجداني ومخاطبة الفطرة، عرض القرآن الكريم قصص الأنبياء، فكان آخر ما ينزل في قصّة نبيّ، موافقا ومناسبا تماما لقصّته حسب ظروفه وخصوصياته.

فقصّة موسى عليه السّلام مع بني إسرائيل الّتي كان لها ذكر في سورة المائدة، حيث قال تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة النازعات، الآيتان(15-16).

[2]- القرآن الكريم، سورة النازعات، الآية(26).

أَرۡبَعِينَ سَنَةً ۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]، تشير إلى ترك القوم في التّيه بعدما أغدق الله عليهم من النّعم، وما أولاهم إيّاه من رحمة فلم يحافظوا عليها، ولم يشكروا الله على ذلك، فكانت النّتيجة من جنس العمل؛ تركهم في التّيه لا مرشد لهم ولا معين حتّى يأتي الأجل المعلوم. فكان مشهد التّيه هو المشهد الأنسب– فنّيا– لختم قصّة قوم لا يريدون الحقّ ولا يرضون به.

وقصّة إبراهيم كذلك وردت في أكثر من معرض، من ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة الحجّ:﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ [2] فكان هذا ختام فنّيّ لقصّته، إذ باعتباره باني البيت ومؤسّسها، كان منظره وهو يؤذّن في النّاس بالحجّ إليها، أليق وأحسن ختام على المستوى الجمالي

---

[1]– القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية(26).

[2]– القرآن الكريم، سورة الحج، الآيتان(26-27).

والفنّي، إضافة إلى كون ذلك اقتضاه الغرض الدّيني، بربط شعائر الحجّ في الإسلام مع شعائره في دين إبراهيم.
والحقيقة أنّه حينما يسرّ القرآن الكريم هذا المسار في قصصه، وينوّع في الأساليب والخطاب وضروب المواعظ والإعتبار، فإنّما لاستكمال جوانب القصّة، ولتذكير الإنسان دائما بعاقبة المكذّبين من الأمم السّابقة، ليبقى في حالة يقظة وخشية مستمرّة، وخوف من عذاب الله تعالى، ومن جهة ثانية، ليبقى في حالة سرور وتفاؤل برحمة الله ووعده، وأنّه ينجي عباده المؤمنين.
وبعد ذلك، إذا كان القرآن الكريم كتاب دعوة دينية يتوخّى هداية البشرية، والحفاظ على فطرتها التي فطرت عليها، وتعريفها بطبيعة ما هديت إليه، فهو كتاب لتربية الإنسانية على مبادئ عقيدية حياتية قبل وبعد كلّ شيء، وأنّه كتاب استخدم لتحقيق هذا الغرض كلّ الوسائل التّوضيحية، وجميع الأساليب البيانية، وشتّى الطّرق التّصويرية التي تسعف النّاس في فهم مقاصده ومراميه، وإدراك مفاهيمه ومعانيه، والوقوف على مضامينه ورؤاه، والتّعرّف على بنائه ومكوّناته.
ومن ثمّ ندرك أنّ القصّة فيه مكوّن من مكوّناته، ووسيلة من وسائله وأسلوب من أساليبه، لا يمكن اعتبارها بأيّ حال من الأحوال فنّية خالصة، أو ذات رؤية محض أدبية. ولا يعني هذا أبدا أنّنا ننفي عنها ذلك، إذ يمكن القول بأنّها ليست فنّية خالصة، أو أنّها ليست لها أغراض جمالية صرفة، أو أنّها لم تنزل لكي تعتبر ذات رؤية أدبية معيّنة، بل تحمل في طياتها–من بدايتها إلى نهايتها– من القضايا الفنّية والخصائص الأدبية، والمقوّمات الجمالية والمكوّنات الأسلوبية، والرّؤى الإبداعية والإشارات البلاغية، والعلامات الحبلى بالمؤثّرات المشهدية والتّصويرية

والإيقاعية، ما أكسبها حصانة ربّانيـــة علـــى مســـتوى الفكـــر والتّحليل، ومكّنها من عرض وتصوير الأحداث، وكيفية تعاملها مع الشّخصيات في رصد مكوّناتها النّفسية وعاداتها الاجتماعيـــة وطرق عيشها، وكذا طريقة إدارتها للحوار والنّقاش، وتســـجيلها للصّراع والمشاهدات، وكيفية تعاملها مع الواقعي والخيالي فـــي تركيب المعاني وضبط المفاهيم، ورسم الرّؤى وتصوير اللّغة.

الأمر الّذي يجعل القرآن الكريم، وليست القصّة إلاّ جزء لا يتجزّأ منه، ومكوّنا أساسا لا ينفصم عنه، كائنا حيّـــا ومنبعـــا ثـــرّا، لا ينضب معينه ولا تنتهي أسراره، ولا تبلى ذخائره ولا تنقضـــي عجائبه على مرّ الأوقات وتداول الأيّام وتقادم الأزمان. حتّى أنّه لمّا سئل الإمام الصّادق رضي الله عنه: ما بال الخطب والرّسائل والأشعار تملّ سريعا والقرآن يعاد ولا يملّ؟ قال: "لأنّ الحاجـــة تنقضي بانقضاء ذلك، والقرآن حجّة لأهل كلّ وقـــت وزمـــان، فلذلك هو أبدا غضّ.."[1].

ولعلّ من الحكمة في القصّة القرآنية وهي تعـــرض لنـــا حيـــاة الأنبياء والرّسل مع أقوامهم، أنّها تقدّم بين يديّ المتلّقي صـــورة ناطقة عن التّصوير الرّائع والتّمثيل المثيـــر، والتّجســـيد الحـــيّ والتّشويق الفائق، والأحداث المباشـــرة، والشّخصـــيات الفاعلـــة والمنفعلة، والمتحرّكة باستمرار في الزّمان والمكان، وفي قلـــب الحـــدث وتقلّباتـــه بأفراحـــه وأتراحـــه ومآســـيه ومواســـاته. وتحمله/المتلقّي/ إلى عالمها الحكائي والسّردي، بمكوّناتها الأدبية المعجزة، ولمساتها الجمالية البديعة، ليعيش لحظات في كنفهـــا، يتتبّع أثارها الحقيقية، ويرصد حركاتهـــا وســـكناتها، ويسترشـــد بشخصياتها ويعيش أجواء أبطالها النّفسية والفكرية والإجتماعية،

---

[1]- كاظم السّباعي، القرآن كتاب حياة، مؤسّسة الوفاء، بيروت-لبنان، 1404هـــ، ط1، ص:13.

ويرحل معها جميعا في أغوار الزّمان وأبعاد المكان، في كنف تصوّراتها وطرق عيشها، ويتمتّع بجمال القصص وجماليتها، ويسبح في فنّيتها ويرتع في أدبيّتها ليستفيد من مضامينها، ويأخذ من رؤاها التّقويمية للحياة البشرية عبر مسيرة زمانية طويلة آمادها، وسلسلة مكانية مختلفة حلقاتها.

وهي/القصّة/ بهذا الشّكل، تذكر لنا في كلّ مرّة ما يناسب الدّعوة المحمّدية في مرحلة من المراحل، مشكّلة لنا نافذة واسعة نطلّ منها على جانب مهمّ من سيرة محمّد عليه الصّلاة والسّلام، سيرة يطبعها خطاب جدلي تتجاذبه قوى الإيمان وقوى الكفر؛ إذ حين تنزله قريش منزلة الشّاعر والكاهن والكذّاب والسّاحر، وتعرض عليه-بعد ذلك- مساوماتها فتقصد تخييره بين الملك والمال، والتّخلّي عن عبادة الإله الواحد، يتوجّه إليه قوله تبارك وتعالى:﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

ومنه نستنتج من هذا الخطاب، أنّ القرآن الكريم متضمّن آيات بيّنات على أنّ النّبي رسول من الله، يعلّمه أنباء القرون الخالية

[1]- القرآن الكريم، سورة ص، الآيات(17-20).

والأمم البائدة، وأنّ فيه تثبيتا له، وتعليما له على الإستمرار في الدّعوة، وفي تحمّل الأذى كما تحمّله من قبله من الرّسل. إذ في الأمر "أصبر" إيحاء بالشّفاء لآلامه صلوات الله عليه، ومعاناته من جرّاء التّشدّد الّذي أسدت به قريش له..، فكان له في خطاب النّبي داوود عليه السّلام ما يخفّف به عن نفسه، ويقوى به على ردّ خصومه بالحكمة.

وفي إطار تأييده عزّ وجلّ له، يتّجه الخطاب القرآني إلى الّذين غلبت عليهم شقوتهم فحاربوا الله في دينه، وأعرضوا عن رسله، وأخذوا يناوئون الحقّ على وضوحه، فيذكر القرآن كثيرا من أساليب إضلالهم، وألوان شبههم الّتي كانوا يعزّزون بها مراكزهم، ويحاولون بها فتنة المؤمنين عن دينهم حسدا وبغيا، لا طلبا للحقّ ولا التماسا للهدى.

وقد ورد في الحديث عن قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم ما يشير إلى هذا المعنى[1].

ثمّ أنّ القرآن الكريم حينما يعرض على النّبي هذه القصص بهذا الأسلوب الخطابي "أصبر، أذكر" يجعل ماضي هؤلاء الأنبياء في صراعهم مع أقوامهم، حاضرا في واقع النّبي محمّد عليه أزكى الصّلاة والتّسليم، ويفيد أنّ ما كان يقصّ عليه من تلك الأنباء لهو الحقّ الّذي لا مراء فيه، وأنّه عليه الصّلاة والسّلام لم يكن يعرف هذه الحقائق قبل نزول الوحي.

إنّ السّرد القصصي حين يعرض سيرة الدّعوة الدّينية، يصوّر بصدق حركة الأنبياء مع أقوامهم داخل سياق مكاني وزماني

---

[1]- قال تعالى في سورة الفجر، الآيات(6-14) (ألم تر كيف فعل ربّك بعاد، إرم ذات العماد، الّتي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الّذين جابوا الصّخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الّذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب، إنّ ربّك لبالمرصاد).

محدّدين، وكيف قادوا صراعا مريرا مطلبهم فيه أن تعلى كلمة الله، وتدحض قضيّة الآلهة المتعدّدة. حيث تتوالى مشاهدهم في سلسلة فكرية محكمة الحلقات، ويتتابع شريط أحداثهم على مرأى ومسمع النّبي محمّد عليه صلوات الله، ومن خلاله الإنسان من حيث هو كذلك. ممّا يعني أنّ القصّة تفرض ذاتها على كلّ من له صلة بالقرآن الكريم قراءة أو مدارسة، لكونها تحتلّ مكان الصّدارة ضمن موضوعاته، وتمسك بالحيّز الأكبر من فضائه الكريم، وتمثّل أعلى مراتب أسلوبه الدّعوي والتّصويري.

وهذا دليل على مدى الإهتمام الّذي أولاها إيّاه ربّ العزّة، وعلى المكانة الّتي حظيت بها، والمرتبة الّتي تبوّأتها لتعبّر أوّلا، أحسن تعبير بالمشهد والصّورة عن مجموع الوظائف والأغراض الّتي من أجلها أنزل القرآن الكريم بشكل عام، ولتؤدّي ثانيا، الدّور الّذي من أجله سيقت هي نفسها في كتاب الله عزّ وجلّ على أحسن الوجوه. ممّا يجعل المتلقّي على اتّصال مباشر ومستمرّ ومتواصل بما تحمله من رؤى ونظرات إسلامية، وبما تطرحه من مفاهيم ربّانية حول مجموعة من المنظومات المتجلّية في الكون والحياة والوجود والإنسان والغيب والشّهادة.

إنّها تشخّص أهداف الرّسالة المحمّدية في مجملها، بل بأكملها، لذا جاءت بتلك الكثرة، وإن كانت كثرتها تعتمد في الأصل على التّكرار، تلك الخاصية الّتي طبع بها القرآن الكريم، والّتي عدّها البعض من محاسن البلاغة، كما يقول الزّركشي في البرهان: "فمنه ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النّظم بمعنى واحد؛ وقد كان المشركون في عصر النّبي صلّى الله عليه وسلّم يعجبون من اتّساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النّظم، وبيان وجوه التّأليف، فعرّفهم الله سبحانه

بأنّ الأمر بما يتعجبّون منه مردود إلى قدرة من لا تلحقه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد".[1]

فهذا العرض المكرّر للقصص القرآني، وهذا الخطاب الّذي يذهب إلى حدّ التّشابه، يبدو وكأنّه مختزل في كلمة واحدة هي "لا إله إلاّ الله"، المنهج النوّراني القائد إلى الهدى. وأنّ النّاطقين بها من الأنبياء والرّسل جميعهم نبيّ واحد ورسول واحد، لكن يتكرّر بعثه لكلّ أمّة في زمانها، ليحمل نفس الخطاب ويدعو إلى ذات القضيّة.

إنّ هذا العهد الّذي أخذه الأنبياء والرّسل على البشريّة بتنفيذ ميثاق المولى تبارك وتعالى، إنّما دليل على وحدة الأساليب الّتي يتّبعها هؤلاء الأنبياء في الدّعوة إلى الحقّ، وعلى وحدة المنهج الّذي ارتضاه الله لعباده، ومن ثمّ على وحدة الرّسالات. ذلك أنّ المواقف العسيرة الّتي عاشها النّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام مع قريش من عدم التّصديق بنبوّته، واتّهامه بالجنون والكهانة والسّحر من جهة، والتّضييق عليه ومحاصرته مع من آمن من قومه في شعب مكّة، من ناحية أخرى، هي حال كلّ نبيّ انصرف عنه قومه الّذين نشأ بينهم، وترعرع بين أوساطهم، من دون أن يشرب من معين ثقافتهم المصبوغة بطلاسم الشّرك، من ذلك ما يقول تعالى:﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ

---

[1]– بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التّراث، القاهرة–مصر، (بدون تاريخ)، ط3، ج3، ص:26–27. وانظر أبو سليمان محمّد الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمّد خلف الله والدّكتور محمّد زغلول سلام، القاهرة–مصر، (بدون تاريخ)، ص:52.

وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾[1].

في هذه الحالات المختلفة وغيرها، كان القصص القرآني وهو يعرض مواقف الأنبياء والرّسل مع أقوامهم، يتنزّل على الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم متنوّعا ومختلفا باختلاف تلك الحالات، يصوّر صراعا مريرا بين فئة آمنت بقضيّة التّوحيد، فانبرت تدافع عنها فكرا وعملا، يحذوها اليقين بصدق الحقّ الّذي يجب أن ينتصر، وفئة أخرى أنكرت النّبوة واعتبرتها حدثا متجاوزا للواقع الثّقافي الّذي ألفته، فحشدت لدعوتها طاقاتها الماديّة والبشريّة، وأعلنت جهارا أنّ ما جاء به محمّد لهو السّحر المبين. وقد تبيّن من ذلك بوضوح، تغلّب سلطة المال على فكر أسياد قريش، وتجذّر ثقافة الرّفض والمنع في وعيهم.

إنّ واقع النّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام مع قريش هنا، هو الحلقة الأخيرة من سلسلة التّاريخ الطّويلة، الخاصّة بالأنبياء والرّسل السّابقين مع مجتمعاتهم الّتي بعثوا فيها، وأقوامهم الّتي

[1]- القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآيات(90-93).

أرسلوا إليها. ورسالته-القرآن الكريم- هي ذات الرّسالة الّتي تعود بدايتها إلى أبي البشريّة آدم عليه السّلام، وترمي إلى نفس الغرض العام الّذي دعت إليه رسالة نوح عليه السّلام، ومن بعده هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ويوسف وأيّوب وذي الكفل، وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولا أدلّ على ذلك كلّه على وحدة الرّسالات من قوله تعالى على لسان نبيّيه موسى وهارون:﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[1].

إذ الملاحظ في الآية الكريمة أنّ المتكلّم إثنان وهما موسى وهارون، غير أنّ السّياق اللّغوي يبرزهما في شخصية واحدة تحمل رسالة واحدة، (إنّا رسول ربّ العالمين).

وحين نقرأ قوله جلّ شأنه:﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ ﴾[2]، تتأكدّ لنا وحدة الخطّ الّذي سارت فيه الرّسالات السّماوية من حيث أنّها انطلقت من مشكاة واحدة،

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الشّعراء، الآيات(15-17).

[2]- القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية(37).

واتّجهت إلى هدف واحد، حتّى أنّ تكذيب القوم الواحدة لرسالة النّبي الّذي بعث إليها، هو بمثابة تكذيبها لكلّ الأنبياء، ووقوفها ضدّ كلّ الرّسالات. فالمشركون على امتداد التّاريخ وفي زمن كلّ نبيّ يقومون بدور واحد يتكرّر بتكرّرهم عبر الأزمان، فهم يمارسون الضّغط المعنوي على أنبيائهم، إن بتكذيبهم وإنكار ما جاؤوا به، أو الإستهزاء بهم والسّخرية منهم، والضّغط المادي على أتباعهم من المستضعفين، باستهدافهم لأملاكهم وأنفسهم. كما يظهر تمسّكهم بعبادة الأصنام، وتجذّر ثقافة الشّرك في وعيهم وتفكيرهم، وتمكّنها من نفوسهم حتّى أصبحت لها امتداداتها في كلّ طقوسهم وتقاليدهم. يفسّر هذا كلّه، ذلك الموقف المتعصّب والتّحدي الكبير ضدّ الرّسالة، الدّال على تحرّك شركهم من موقع ارتباطهم بماضي آبائهم، وبامتيازاتهم ومصالحهم.

ولعلّ الجدال الدّائر بين النّبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام وقريش، لأصدق صورة على الموقف المتشنّج للمشركين وتعصّبهم لفكرهم، وهو ما نطق به موروثهم الثّقافي..(يا محمّد، إنّا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدّين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلاّ جئته فيما بيننا وبينك)[1].

كذلك قال قوم نوح لنبيّهم:﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

[1]- أبو محمّد عبد الملك بن هشام، السّيرة النّبوية، تراث الإسلام، القاهرة-مصر، تحقيق: الأنباري، (بدون تاريخ)، ج1، ص:234 وما بعدها.

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، وثمود قوم صالح لنبيّهم:﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾، ومدين لنبيّهم شعيبا:﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾.[1]

وعاد قوم هود لنبيّهم:﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2]، ويقول تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(32-62-87).

[2]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(70).

وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

وهكذا فموقف قريش من الدّعوة المحمّدية هو من جنس موقف تلك الأقوام التي سلف ذكرها في الآيات مع أنبيائها ورسلها، غير أنّ الله جلّت قدرته ناصر رسله مهما نزل بهم من العذاب والبلاء، وأنّه مهلك هؤلاء الجاحدين المكذّبين، ف﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

إنّ الآية الكريمة–هنا– تحدّد الإطار الّذي يتحرّك فيه القصص القرآني، وهو العمل على تسلية النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وتقوية إيمانه من خلال إنذار قريش وكلّ من كذّب رسالات الأنبياء والرّسل.

---

[1]– القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآيات(51–53).

[2]– القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية(41).

وقد شاءت حكمة الخالق تبارك وتعالى أن ينزّل هذا القصص على النّبي محمّد مفرّقا[1] على حسب الحوادث، حتّى يتقوّى به بعد حفظه، فيكون تأثيره بذلك أكبر وأعمق. سيما وأنّ القصص القرآني لم يكن سردا مجرّدا لبعض الأنباء والأخبار القديمة، بل كان تاريخا لسيرة الدّعوة الدّينية، يجري في جملته مجرى الأقصوصة الّتي تعرض المشاهد دون استيفاء جميع عناصرها في موقف واحد، تحقيقا لحركة الرّسالة وتعميقها في نفوس النّاس، حيث يصوّر بذلك جميع الانطباعات والانفعالات الّتي تتلوّن بها النّفس البشرية، فيوجّه الإنسان ويرشده من خلال تشكيله علاقة اتّصال حقيقية بين المرسل/الله/ والمرسل إليه/النّبي/، بواسطة طرائق مختلفة كالصّوت والإيماءة بالعينين والحاجبين والشّفتين... ممّا تبين عنه اللّغة[2]، إذ نجد مثل هذا الإستخدام في القرآن الكريم في قصّة زكريا ومريم عليهما السّلام؛ فزكريا يحقّق الإتّصال مع قومه بنظام الرّمز، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ

---

[1]- قال تعالى في سورة الفرقان(32) (قال الّذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا).

[2]- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النّص(دراسة في علوم القرآن)، المركز الثّقافي العربي، بيروت-لبنان، 2005، ط6، ص:32-33.

أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

وكذلك حدث الإتّصال أيضا بين مريم عليها السّلام وقومها، حيث أشارت إلى ابنها-عيسى الطّفل- في رسالة إلى قومها بغرض سؤاله، ﴿ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

على أنّ مضمون عملية الإتّصال هذه، هو تبليغ النّاس وتوجيههم إلى الإيمان بالله وملائكته ورسله، والتّذكير بيوم الوعد والوعيد من خلال الكشف عمّا حاق بالأمم السّابقة بعدما كذّبت رسلها. هؤلاء الرّسل الّذين كانت في حياتهم مواقف متباينة، كان أشّدها وقعا عليهم تلك الّتي وقفت فيها أقوامهم موقف الرّافض لفكرة النّبوة لبشر مثلهم، بل أقلّ منهم سلطة وجاها، هي ليست بنفس مفهوم السّلطة والجاه حينما يوصف بها شخص النّبي، فكان

---

[1]- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية(41).

[2]- القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات(27-29).

التّكذيب والتّعجب المشوب بالإستهزاء، فالضّغط المعنوي والمادي، واندفاع تلك الأقوام في محاربتهم.
وإن كان هؤلاء الأنبياء يتفوّقون في كلّ مرّة على خصومهم، ويحققون نصرا لدعواتهم إن بتأييد من ربّ العزّة، أو بارتقائهم إلى مستوى فوق المستوى البشري. ولقد كانت لهم المؤازرة الإلهية، فأنعم الله عليهم فتساموا إلى درجة التّقديس. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

وهكذا أثار الخطاب القرآني حافظة أولئك المكابرين، وزاد من حيرتهم لأنّهم لم يجدوا هذا الأخير من جنس خطابهم المألوف.
وبذلك صارت الرّسالة تمثّل التّحدّي الكبير لعقيدة الشّرك بفعل رعاية الخالق لها، وصار النّبي المثل والقدوة الّتي تتحرّك من موقع الفكّر الواعي الهادئ، العامل على كشف الحقيقة الواسعة للكون، الواضع لنظام المجتمع ومنهج الحياة بإحكام.
وكون النّبي محمّد عليه أزكى الصّلاة والتّسليم متلقيّا أوّل للخطاب القرآني، ومبلّغا بلسان قومه، فمن الطّبيعي أن يكون ما ينزّل عليه من قصص، رسالة لغوية دالّة، من حيث أنّ مهمّة المخاطبين/النّاس/، هي الوصول إلى المرسل الأوّل/الله/ من خلال الخطاب نفسه، والحذو حذو المخاطب الأوّل/النّبي/ في

[1]- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية(34).

فكره وسلوكه، ما دام القصص القرآني بهذه الصّورة "يسمع أصداء النّفوس في جهرها ونجواها، وحين ترتفع في معارج الخير، أو تتردّى في مهاوي الشّر، وتشعرنا بما في قرارة الجنس البشري من تجانس وتقابل عبر التّاريخ"[1].

لقد حمل لنا القصص القرآني حياة الأنبياء والرّسل في صورة ممتعة للأذن والقلب والعقل كأدوات للتّلقّي، ممّا يوحي بتوازن مصادر المعرفة لدى المتلقّي للخطاب القرآني سواء بالصّبر والثّبات أمام العقبات الّتي تعترض الحركة الرّسالية للأنبياء، أو بالتّدبر والتّفكر فيما حمله النّص القرآني من أنباء وأخبار الأوّلين.

ولمّا اعتبر النّص القرآني المصدر المعرفي الصّادق، المعبّر عن الكون والحياة، وكانت القصّة إحدى وسائله التّبليغية الهامّة لأهدافه وأغراضه، أفاضت-القصّة- في الدّعوة إلى التّفكر، وسلوك الطّريقة العقلية كآلية لإثبات وحدانية الله وقدرته وحسن صنيعه، وجرت في صنعها لتلك المواقف الّتي صوّرتها شخوص الأنبياء مع أقوامهم مجرى المثل، وصار المتلقّي إزاءها يتحرّك من موقف المشاهد لتلك الصّور وهي تتداعى أمام مدركاته على شريط اللّغة، لا من حيث أنّها/اللّغة/ خاضعة في حكيها للمسار الحياتي لهؤلاء الأنبياء، بل من حيث أنّها أساليب تصويرية وتشخيصية وتمثيلية، تمتلئ حيوية وحركية وواقعية، تعرض معاني القرآن الكريم ومواضيعه ومضامينه ومحتوياته في شكل سرد أو حوار، أو جدل أو صراع، أو عقدة أو حبكة، بطريقة تجمع بين ذلك كلّه، تقوم بها مجموعة من الشّخصيات في فضاءات مختلفة وظروف مغايرة، وبأشكال متعدّدة، لتجمع في

---

[1]- التّهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، بحث أكاديمي، جامعة الجزائر، 1971، ص:25.

وعيه وإحساسه بين الوعظ المباشر المعتمد على التّرغيب والتّرهيب، أو التّوجيه الإلهي المبني على أسلوب الأمر في شقّيه الإثباتي والنّفيّ، وبين أحداث الواقع المعيش والحركة الحية الّتي مثّلها الأنبياء والرّسل الكرام بمسيرتهم الإيمانية، وأولئك المعاندين الجاحدين بدين الله تعالى، المتطاولين على خلقه، والواقفين عقبة في وجه الدّعوة إليه.

ممّا يستنتج منه الحضور المكثّف للعقل، قصد فكّ رموز اللغّة الّتي جاء بها هذا الخطاب، من أجل تحديد علاقة الرّبط بين ما عاشه أولئك الرّسل مع أقوامهم، وما تعرّض له النّبي الكريم محمّد بن عبد الله مع قريش، وتحقيقا للّذة المعرفية والفنيّة الّتي يعيشها المتلقّي على ضوء هذا التّصوير القصصي البديع، الّذي تفوّق على كلّ أشكال التّعبير قبله وبعده.. قال تعالى:﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ ﴾[1].

بهذا الإستفهام الإنكاري الّذي اختتمت به الآية الكريمة (أفلا تعقلون؟)، يتحدّد إذن المغزى من القصّة القرآنية، وهو تمجيد العقل واتّخاذه أداة لفهم النّص. ولنفس القصد أيضا، وتحقيقا للتّأثير واستجلاء العواطف والإنفعالات الّتي تختلج في النّفس البشريّة، نوّع القصص القرآني في عرضه لسيرة الأنبياء في منهجه التّعبيري وفي أساليبه، فحاز مكانة هامّة في بناء النّص

[1]- القرآن الكريم، سورة القصص، الآية(60).

القرآني وقداسته، حيث حقّق في تأديته لأغراضه المتنوّعة انسجاما وتناسقا مطلقين على مستوى المعنى والمبنى، وشكّل بأهدافه ومراميه ارتباطا وثيقا مع المحور العام للقرآن الكريم، وهو البعد الدّيني.

وقد استطاع بنمطيّته السّردية العالية أن يسيطر على عقل المخاطب ووجدانه، حتّى صار يأخذه من حاضره إلى ذلك الماضي البعيد، تماما كما لو أنّه يعيش حياة تلك الأقوام الغابرة في حاضره.

وهكذا تختزل القصّة بطريقتها السّردية أو الحوارية الأحداث والمشاهد المتشابهة في موقف واحد، ينتسب إليه كلّ من انسجم فكره مع فكرة التّوحيد الخالص لله.

وفي ضوء هذا المعنى يصيغ لنا الحدث القصصي بألفاظه الموسيقية، وتراكيبه المنسوجة وطريقته التّصويرية، التّجربة الإنسانية بأشكالها المختلفة، ويحقّق لها فاعلية الإستمرارية والتّواصل مع العقيدة بمفهومها العام. "أي أنّ القصص القرآني تصوير باللّون وتصوير بالحركة وتصوير بالإيقاع، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات ونغم العبارات، وموسيقى السّياق في إبراز صورة من الصّور، تتملاّها العين والأذن والحسّ والخيال والفكر والوجدان"[1].

ومن ثمّ فالأسلوب القصصي بهذه الخاصّية ينقلنا من جوّ القصّة إلى الواقع الّذي نحياه، ليحوّلنا إلى فضاء العظة والعبرة المستخلصة من القصّة نفسها، فيجدّد فينا نشاط النّفس، ويخلق لدينا شعورا بالإنتماء إلى تلك النّقاط المضيئة من تراثنا، ويجعلنا نعيش مع الأنبياء نشوة الإنتصار على خصوم الدّعوة، ويملأ

---

[1]- سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، دار الشّروق، بيروت-لبنان، 1403هـ/1983م، ط8، ص:135 .

جوانب حياتنا بنور الإيمان على ضوء التّوجيهات الدّينية المرتبطة أساسا بأمر المولى تبارك وتعالى، بالسّير في الأرض والنّظر في الكون، كمنهج يلج به القارئ للقصّة القرآنية قصد تحديد الوجهة الّتي يأتي منها الخير، وتلك الّتي يكون منها الشّر. وبهذا المعنى التّهذيبي الإصلاحي التّربوي/التّرغيب/ قرّرت القصّة في أكثر من موضع، حقّ الله على عباده: عبادته وعدم الشّرك به، والدّعوة إلى الإيمان بما أمر به وما نهى عنه، مع اقتران ذلك بالتّخويف والإنذار/التّرهيب/ من عاقبة التّكذيب بالحقّ، والمآل إلى الهلاك كما أهلكت أمم سابقة. قال تعالى:﴿

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

[1]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيات(35-36).

الفصل الثّاني

العرض القصصي لقضيّة التّرغيب

تمهيد:

إنّ المساحة الّتي شغلتها القصّة القرآنية من كتـــاب الله كانت مساحة واسعة، ما نظنّ أنّ موضوعا آخر كان له ما كـــان لها من نصيب، ممّا يدلّ على أهمّيتها الكبيرة ومكانتها العظيمة، وقيمتها في التّوجيه وفي الهداية إلى الحقّ.

فهي لم تأت لتقرّر هدفاً واحداً، بل كانت لها أهـــدافها الكثيـــرة وغاياتها المتعدّدة، إذ تهدف–على سبيل الإجمال– إلى تربية نوع الإنسان تربية تضمن له خير المســـالك، وتحـــول بينـــه وبـــين المنزلقات والمهالك.

لقد جاءت القصّة القرآنية لتعمّق العقيدة في النّفوس، وتبصّر بها العقول، وتحيي بها القلوب، وتسلك لتلك القضيّة المهمّة أحســـن الطّرق إمتاعاً للعاطفة وإقناعاً للعقل، حيث ركّـــزت فـــي مقـــام الألوهية على وحدانية الله وعدله، وقدرته وحكمته، وحبّه لعباده. كما ركّزت في مجال الرّسالة على الصّفات الخيّـــرة للأنبيـــاء، ليكون للنّاس فيهم أسوة وبهم قدوة. فهم وإن كانوا بشراً إلاّ أنّهم أكرموا بالوحي والرّسالة. وكذلك في الحديث عن اليوم الآخـــر، وما يكون فيه من أحداث (لتجزى كلّ نفس بما تسعى).

وفي حديثها عن ذلك كلّه نجد الدّليل القاطع، والبرهان السّـــاطع منتزعاً من النّفس تارة، ومن الآفاق تارة أخـــرى، جـــاءت بـــه لتصوّر الحقيقة التي تقوم عليها الحياة من خير وشـــرّ وســـعادة وشقاء... وقد سلكت لذلك كلّه أسلوب التّرغيب تارة والتّرهيـــب تارة أخرى.

العرض القصصي لقضيّة التّرغيب:

إنّ الصّدق في القصص القرآني مـــن كونـــه الحـــقّ، الصّادر عن الحقّ سبحانه، الّذي كان بمعيّة الأحداث كلّها، يقصّها

ويحكيها ويرويها انطلاقا من علمه الواسع وإحاطته الشّاملة، ولكونه يعرض من أخبار الأمم ما تدلّ عليه تلك الآثار والحضارات كقرى عاد(في الأحقاف باليمن) ونبيّهم هود، وثمود في الحجر(على الطّريق إلى الشّام) ونبيّهم صالح، وأهل مدين(بمعان على أطراف الشّام) ونبيّهم شعيب..[1].

والصّدق في القصص القرآني كذلك مبرّر باقتران الحدث القصصي بالبرهان.. كانقلاب عصا موسى حيّة، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص عند عيسى بن مريم عليهما السّلام، كما ظاهرة الإعجاز اللّغوي في هذا القرآن الحكيم، وهي الخاصّية الّتي انفرد بها عن باقي الرّسالات الأخرى.

والقول بالصّدق في القصص القرآني أمر لا حاجة فيه إلى استدلال، ذلك أنّ القرآن مصدّق لما جاء في التّوراة والإنجيل، وأنّ الأنبياء والرّسل جميعهم يصدّق اللاّحق منهم السّابق كما صدّق السّابق منهم اللاّحق، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[2].

---

[1]- عماد الدّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الدّمشقي، قصص الأنبياء، دار صادر، بيروت-لبنان، 2002، ص:72-84.

[2]- القرآن الكريم، سورة الصّف، الآية(6).

الأمر الّذي يجعل الكتب المنزّلة ذات مصدر واحد؛ الثّابت فيها هو عقيدة التّوحيد، بينما المتغيّر فيها هو الشّريعة، فإنّها متعدّدة بتعدّد الأمم الّتي نزلت عليها تلك الرّسالات، ومختلفة باختلافها.
وعليه فهو/القرآن/ تنزيل من ربّ العالمين بلسان عربي، قال تعالى:﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ ﴾[1]، نزل بلغة العرب، فحمل ثقافتهم ونقل موروثهم، وفي نفس الوقت تجاوز حدود البيئة الثّقافية الّتي نزل فيها، فصار يشكّل في كلّ الأزمنة والأمكنة الأطر المعرفية المطلقة، ويعمّق تلك المعرفة الّتي تحرّر الإنسان وتوجّهه.
وبالتّالي استحقّ أن يكون كتابا لكلّ النّاس على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم، ومكّن للقصّة–وهي إحدى وسائله التّبليغية– أن تكشف عن تلك المعاني العميقة فيه، وأن تعطي لكلّ حادثة معناها ودلالتها.
كما جاءت قصصه متفرّقة حلقاتها، موزّعة أحداثها، لا تجتمع عناصرها المكوّنة لها في سور بعينها أو في أماكن منها بذاتها، على الرّغم من كون مجموعة من السّور كانت عناوينها هي أسماء بعض الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام[2]. مع أنّ هذه التّفرقة على مستوى السّرد القصصي لا تعني الفصل بين القصّة وبين غيرها من مجموع موضوعات السّورة، بل تفيد تحديدا امتزاجها بموضوع السّورة امتزاجا عضويا، وتناغمهما مضمونا،

---

[1]– القرآن الكريم، سورة فصلت، الآيات(1–3).

[2]– كسورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم ومريم ولقمان ومحمّد ونوح... عليهم الصّلاة والسّلام.

وتناسقهما بناء، وتكاملهما إيقاعا. ممّا يعني أنّ السّرد القصصي في القرآن الكريم نسيج متفرّد في صنعته، إستطاع بمزجه للأحداث والوقائع والشّخصيات مع المواضيع الأساسية، الّتي يبتغيها الخطاب القرآني العظيم من خلال أسلوب التّرغيب، أن يهيّء الأسباب النّفسية والأجواء الفكرية والأسس العقلية، لكي ينفعل المتلقّي بالأحداث ويتفاعل معها، ويراها أمامه مصوّرة في شكل شريط على الرّغم من تفرّقها، ويعيشها مشاهد حية ناطقة، تجذبه إليها جذبا فينصهر في بوتقتها.

إنّ للسّرد القصصي-انطلاقا من ذلك- مكانة متميّزة، ومنزلة متفرّدة في الخطاب القرآني ككلّ، من حيث الموضوع ومن حيث العرض.

فأمّا من حيث الموضوع فإنّ القصّة القرآنية تحتوي على الخطوط العريضة والمهمّة لجميع مواضيع القرآن وأهدافه، من عقيدة وعبادات ومعاملات، وتؤكّد ما جاءت به الرّسالات السّماوية الأخرى، وهو بناء قاعدة التّوحيد على أسس واقعية، والعمل على إبراز هذا المبدأ وتبيانه من خلال أسلوبها التّصويري.

وأمّا من حيث العرض، فإنّ الطّريقة الّتي تمّ بها طرح القضايا السّابق ذكرها(العقيدة والعبادات والمعاملات)، تجعل الأسلوب القرآني فريدا في وحدته، متميّزا عن سواه، ليس بمضامينه فحسب بل بلغته؛ فهو إذا عربي اللّسان، إلهي المضمون، شغلت فيه القصّة حيّزا كبيرا، واستطاعت بخصوصيتها اللّغوية أن تحوّل العقيدة إلى قضيّة تمتزج بالإحساس والشّعور، وذلك بالإستعمال المكثّف والواسع للأسلوب القصصي التّصويري، الّذي يشكّل الدّعامة الأساسية للعملية التّربوية والتّعليمية، من

حيث أنّه يخلق لدى الإنسان مفهوما معيّنا، ويبعث في النّفس تصوّرا ويحدث فيها تأثيرا.
ولكون النّص القصصي صالحا لكلّ زمان ومكان، ويحتوي كلّ الحقائق المعرفية، وأنّ فهم الواقع كغاية وهدف من وراء دراسة القصّة القرآنية أمر لا يتحقق إلاّ على ضوء هذا النّص، فإنّ الدّراسة من تلك الزّاوية تقتضي تحديد بل قراءة العلاقة بين مضمون القصّة القرآنية كخطاب إلهي، ومبناها كخطاب إنساني. أعني بذلك القفز على مضمون القصّة القرآنية لاشتراكها مع الكتب المنزّلة في نفس المبدأ/العقيدة/، والتّحول إلى ذلك العنصر المضيء فيها، الّذي يشعر المتلقّي بحرارة المتعة وقوّة التّأثير، لنقف على ذلك الجهد الّذي يؤدّيه الأسلوب/اللّغة/ في تجسيد الأحداث وتشخيص المواقف.
فهل من المتعة والجمال الفنّي فقط، أن تتلوّن القصّة القرآنية بأسلوب تجمّعت فيه كلّ ألوان التّعبير الفنّية؟ وإلى أيّ مدى حقّق هذا الأسلوب وظيفته التّواصلية؟ وكيف استوعب الخطاب الإلهي، وضمن له قداسته دون أن ينفصل عن الواقع الموجّه إليه؟ ثمّ ما الأداة الّتي تفعّل القصّة وتحقّق تفاعل القارئ معها؟ وما وجه البيان في هذه الأداة حتّى صارت القصّة بها تستحوذ على العقول وتأخذ بالنّفوس؟.
وسواء كانت القصّة حقيقية أو كانت مضرب المثل(قصّة صاحب الجنّتين مثلا)[1]، فإنّ الطّريقة الّتي عرضت بها، تجعل أحداثها حاضرة عند المتلقّي لحظة قراءتها، تنقله من جوّ المشهد المصوّر إلى مقام العبرة. فتصير المواقف الّتي عاشها الأنبياء

[1]- أنظر محمّد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، 2006، ط1، ج1، ص:258.

مع أقوامهم–من خلال الأسلوب الّذي صوّرها به القرآن– صورة ذات دلالات قويّة، تترك انطباعا متفاوتا لدى المتلقّي، فيتجدّد بتجدّدها وبتجدّد علاقته مع واقعه.

ممّا يعني أنّ الخطاب القرآني عبر القصّة سيظلّ يؤثّر بقوّة، بفعل طريقته الفنّية المتفرّدة، وسيظلّ يرسم الحدث ويشخّصه، ويضيئ ما تكتنفه الطّبيعة البشرية من أفكار وعواطف وانفعالات، وينقل لنا حياة تلك الأقوام مع أنبيائهم شاخصة، تحرّك فينا نوازعنا بذلك الحوار الحار الدّائر بين النّبي وقومه، وتسمع فينا هفهفة نفوسنا، وتصوّر لنا ألوان الحياة كلّها بفعل التّصوير.

ولئن كان "التّصوير في القصّة القرآنية طريقة ومنهجا وقاعدة التّعبير في القرآن"[1]، فإنّ الرّكيزة فيه هي اللّفظة في موضعها، وفي انّساقها مع غيرها، وفي تقديمها وتأخيرها، في تكرارها وفي حذفها، وفي توظيفها الحقيقي والمجازي، وفي جرسها ونظامها الصّوتي، حتّى صارت الأداة المفضّلة في التّعبير"بالصّوت وبالحركة وبالتّخييل، وتعبير بالنّغمة تقوم مقام اللّون في التّمثيل"[2]، ممّا جعل النّص القصصي نصّا متجدّدا على مستوى المعنى والدّلالة، قادرا على إقحام القارئ–بطريقته التّعبيرية هذه– في جوّ الصّراع والجدل الدّائر بين النّبي وقومه، داخل حوار واسع تتجاذبه أطراف الإيمان والكفر. وبذلك تتجلي العبرة من القصّة أكثر.

ولعلّ المتتبّع للقصص القرآني، سيما المكّي منه، يدرك ارتباط القصّة القرآنية بالغرض العام والرّئيس من القرآن الكريم كلّه، وهو الدّعوة إلى التّوحيد وعبادة الله وعدم الشّرك به.

---

[1]– سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، المرجع نفسه، ص:9.

[2]– سيد فطب، التّصوير الفنّي في القرآن، المرجع السّابق، ص:37.

ومن ثمّ فأهميّة هذه القضيّة، في أنّها تستوجب طّريقة فنّية لتبليغها، "لأنّ وظيفة الفنّ الأولى هي إثارة الإنفعالات الوجدانية، وإشاعة اللّذة الفنّية بهذه الإثارة، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الإنفعالات، وتغذية الخيال بالصّور لتحقيق هذا جميعه. وكلّ أولئك تكفله طريقة التّصوير والتّشخيص للفنّ الجميل"[1].

نعني بذلك أنّ الغرض الدّيني من القصّة القرآنية مقصود من الغرض الفنّي، إذ الفنّ فيها "إبداع في العرض وجمال في التّنسيق وقوّة في الأداء، وشيئ من هذا كلّه لا يقتضي أنّه يعتمد على الخيال والتّلفيق والإختراع متى استقامت النّفوس وصحّت الأفهام"[2].

أي أنّ الأحداث في القصّة القرآنية تتماشى والغرض الفنّي من دون أن تفقد دلالتها الواقعية، وأنّ الشّخصيات الّتي يرسمها الأسلوب القصصي، لصورة ناطقة لنماذج إنسانية/الأنبياء/ "يرسم التّعبير الفنّي فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسما رشيقا رقيقا شفيقا، في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المؤثّرات، وجميع الواقعيات في مثل هذه النّفوس، في ظلّ بيئتها ومؤثّرات هذه البيئة كذلك"[3]، من ذلك ما نصّ عليه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ

---

[1]- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشّروق، بيروت-لبنان، (بدون تاريخ)، ص:7.

[2]- سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، المرجع نفسه، ص:255 .

[3]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق، بيروت-لبنان، 1408هـ/1988م، ط15، م4، ج12، ص:1996.

لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

﴾[1].

إذ أنّ المعنى-في الآية الكريمة- وإن حمل على أنّ الخطاب منسوب إلى النّبي يوسف عليه السّلام-وهذا هو الغالب- هو طهارة يوسف من الذّنب الّذي ألحق به(خيّانة الملك العزيز في زوجته)، والكلام هنا من باب مدح النّفس وتزكيتها، بدلالة قوله(ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب)، فترك المعصية والإبتعاد عنها لقيام الخوف من الله تعالى. وإن حمل هذا المعنى على أنّ الخطاب منسوب إلى امرأة العزيز، فذاك دليل آخر على براءة يوسف عليه السّلام، بإقرار زوجة الملك نفسها بذلك، فيما سبق من قولها(أنا راودته عن نفسي وإنّه لمن الصّادقين)[2].

وبالمجمل فإنّ الخطاب من خلال ما سبق، يؤكّد صدق نبوّة يوسف، بإظهار شهادته من ناحية وإقرار امرأة العزيز من ناحية أخرى، إذ الكلام في كلّ الأحوال موصول-فنّيا- ببعضه البعض بما يفيد دفع الخيانة عن يوسف عليه السّلام، ونفيها بالحجّة(فهي لم ترمه بما يقدح فيه في مغيبه)، لوجود العلّية في الحدث والظّرفية الحالية، وأدوات التّوكيد[3].

---

[1]- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآيتان(52-53).

[2]- أنظر الفخر الرّازي، التّفسير الكبير، المرجع نفسه، ص:154-155. وانظر أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشري الخوارزمي، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 480/2.

[3]- أنظر محمّد الطّاهر بن عاشور، المرجع نفسه، ص:292.

كما يصوّر الأسلوب القرآني حالة أخرى مناقضة لهذه تماما، هي حقيقة المعرضين عن الدّين الّذين تجنّبوا الرّشد، معلّلا ذلك بسبب استكبارهم وتكذيبهم لآيات الله، فحقّ عليهم وعده. قال تعالى:﴿

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[1].

إذا، فحين يأتي التّعبير بهذه اللّغة المصوّرة الموحية، وينقل المعاني والحالات النّفسية في صورة شاخصة، يجد صدى له في نفس المتلّقي، فيتجسّد أثر الكلام، طالما أنّ الوظيفة التّبليغية للخطاب لا تقف عند حدود الدّلالة المعنوية للّفظة والعبارة، بل تتجاوزها إلى عنصري الإيقاع والظّلال في لغة الخطاب أحايين كثيرة.

ومن ثمّ فقيمة هذه الطّريقة التّعبيرية الّتي انتهجها الخطاب القرآني ومنه القصّة، إنّما في قوّة التّأثير، ليس انطلاقا من طبيعة اللّفظ في ذاته، بل في موضعه من سياق نظمي رائع، "محقّقا

[1]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(146).

إبلاغيته بإنشائه حالة من التّواصل والحوار والتّفاعل بينهما وبين المتلّقي"[1]، من حيث أنّه يلقي في نفسية المتلّقي وعقله صوّرا حسّية للمعاني الذّهنية والحالات النّفسية، ويبعث في المشاهد المنظورة حياة، ويبثّ في كلّ شيء حركة متجدّدة، ويرسم الشّخصيات رسما يحوّلها من صورتها المعنيّة إلى صورتها النّموذجية في تسلسل معنوي بين الأغراض، وتخيير للألفاظ، وتأليف محكم للعبارات.

إنّ سحر التّأثير هنا حاصل باللّغة أصلا، كون الخطاب البشري قاصرا عن الإحاطة بأسباب النّظم، وعاجز عن الإتيان بشيء من مثله ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

"وقد ورد في إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكفر الوليد بن المغيرة ما يصدق القول، وهما يستمعان إلى ما نزل على النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم من قرآن، وليس فيه تشريع ولا غيب ولا علوم كونية"[3].

والقرآن الكريم تباعا، نصّ كامل متكامل، لا ينتهي الإعجاز فيه عند حدود الغيب والعلوم، بل يتعدّاه إلى ذلك النّسق اللّغوي الّذي بهر أرباب الفصاحة، مشكّلا لنفسه طريقة تكتسب أهميّتها-كما يراها بعض الدّارسين المحدثين-من "كونها تقدّم المعنى البعيد والذّهني المجرّد في هيئة مألوفة مفعمة بالحركة، تستلفت الذّهن

---

[1]- سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدّولية، بيروت-لبنان، 1991، ط1، ص:12.

[2]- القرآن الكريم، سورة يونس، الآية(38).

[3]- أنظر سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، المرجع نفسه، ص:12.

فتنقله من شيء لا يعرفه إلى آخر هو به أعرف، فيستحكم تأثّر النّفس به، ولكونها أيضا تمنح المتلقي فرصة التّملّي وإمعان النّظر وإعادة التّدقيق، وذلك لما تمتاز به من قدرة على توقيفه أمامها للتّأمل مرّة بعد مرّة، دون أن ينفذ عطاؤها أو يتعطّل سحرها"[1].

ووظيفة الصّورة الفنّية–هنا– التّبليغ، وتمرير الخطاب انطلاقا من التّرغيب والتّرهيب، إظهارا لأغراض القرآن وموضوعاته.

فحين يكون النّموذج المرغّب فيه هو صورة الفضل والخير مجسّدة في شخص النّبي، والنّموذج المنفّر منه هو صورة القبح والشّر مجسّدة في شخوص المعاندين المكابرين، وهم على السّواء بشر تكتنفهم أفكار وتصوّرات، وتحرّكهم نوازع وحالات نفسية رسمها الأسلوب القرآني ونفخ فيها من روحه، تصير الصّورة الفنّية وسيلة مرتبطة بالهدف الدّيني "توفّر بموجبها عنصر الصّدق في المحتوى، ومهارة الأداء في نغمة فنّية ونفسية صادقة"[2].

إنّها الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن، وفضلها إنّما في كونها تقتضي التّنويع، كدلالة على أنّ التّصوير في القصص القرآني طريقة تجعل الخطاب القصصي كنصّ متلو يتحوّل إلى واقع حيّ عند المتلقّي.

أيّ أنّ المشاهد المصوّرة والمواقف المشخّصة والمعاني المجسّمة، تنقل المتلقّي من موقع المتلو للخطاب القرآني، إلى

---

[1]– محمد طول، الصّورة الفنّية في القرآن، رسالة جامعية، تلمسان–الجزائر، 1995، ص: أ .

[2]– عمر السلامي، الإعجاز الفنّي في القرآن، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله للنّشر والتّوزيع، (بدون تاريخ)، ص:22.

موقع المشاهد لتلك العروض، بفعل ما في قاعدة التّصوير مـــن خصائص أهمّها:

1- التّشخيص:

إنّ عنصر التّشخيص في القصص القرآني تؤكّده قدرة النّص على التّأثير في المتلقّي، بفعل ما تحدثه اللّغة المجازية من تخييل "يضمر في داخله طاقة نفسية إبلاغية لا حدّ لها"[1]، ولنقرأ قوله تبارك وتعالى:﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[2]، لنرى إبراهيم عليه السّلام "وقد ذهب عنه الخوف بعدما اطمأنّ قلبه لضيوفه، وعلم أنّهم ملائكة جاءوا ليبشّروه بولادة غلام، يجادلهم في شأن إهلاك قوم لوط، وغرضه تأخير العذاب عنهم لعلّهم يؤمنون، غير عجول في الإنتقام من المسيء إليه، كثير التّأوه والتّأسّف على النّاس لرقة قلبه، منيب رجّاع إلى طاعة الله"[3]. ومن دون أن ننزع صفة البشرية-هنا- على النّبي كمتلقّي أوّل للنّص، يأتي التّعبير القرآني من خلال الآية ليخلع الحياة على تلك الإنفعالات الّتي لامست قلب إبراهيم عليه السّلام، ويجعلها شخوصا تتحرّك، محققا بذلك إبلاغيته بفعل إسناد الحركة للجامد عن طريق الإستعمال المجازي.

---

[1]- سمير أبو حمدان، المرجع نفسه، ص:139.

[2]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(74-75).

[3]- محمّد علي الصّابوني، المرجع نفسه، ص:26.

إنّ أهمّية هذا الأسلوب في الحياة العملية للمخاطبين بالنّص القرآني، في كونه منهجا تربويّا واضحا في كلّ ما يتعلّق بمقاصد القصّة القرآنية وأغراضها، من غير أن يخرج في مدلوله عن معنى التّرغيب.

فأسلوب التّرغيب من أنجح الأساليب الّتي استخدمها القرآن الكريم في الدّعوة إلى الله، لقربه من النّفوس البشريّة المشدودة إلى النّفع والنّعيم، ولامتلاكه قوّة تأثيرية إقناعية، قوامها ما يحمله الخطاب القرآني في ألفاظه وأخباره وأحكامه من بيّنة وحجّة وبرهان، وقد كثر في التّعبير القصصي الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة، للدّلالة بها على المعقولات المعنوية، فضلا عن إيحاءاتها إلى النّفس، فهي لا تكون إلاّ وفاء لحاجة المقام، واقتضاء لأحوال المتكلّمين.

وللنظر إلى ما أضفته لفظة "أفرغ" في قوله عزّ وجلّ:﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1] من معنى يسفر عن شدّة حاجة السّحرة المؤمنين بموسى عليه السّلام إلى الصّبر ليربط به على قلوبهم، وهي حاجة تشبه حاجة الظّمآن إلى الماء، "فإنّه لمّا كان ذلك الوعيد ممّا لا تطيقه النّفوس سألوا الله أن يجعل لنفوسهم صبرا قويّا يفوق المتعارف، فشبّه الصّبر بالماء تشبيه المعقول بالمحسوس، على طريقة الإستعارة المكنية، وشبّه

[1]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(126).

خلقه في نفوسهم بإفراغ الماء من الإناء على طريقة التّخييلية، فإنّ الإفراغ صبّ جميع ما في الإناء، والمقصود من ذلك، الكناية عن قوّة الصّبر، لأنّ إفراغ الإناء يستلزم أنّه لم يبق فيه شئ ممّا حواه"[1].

والحقّ أنّ أسلوب التّرغيب لا يغيب في معظم سور القرآن الكريم، غير أنّه في القصّة القرآنية يتأسّس على قاعدة التّشخيص كما سبق الذّكر، لأنّ القرآن الكريم لا يقصد القصّ في حدّ ذاته بل يستعمله لأهداف الدّعوة.

وعليه فهو نوع من ضرب المثل يأتي لغاية البيان ولأجل العبرة.

2- **التّمثيل:**

والتّمثيل(ضرب المثل) صورة من صور التّرغيب، اتّبعها الأسلوب القصصي في التّذكير والوعظ والحثّ والزّجر، وتقريب القصد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس على نحو يجمع بين تلك الصّور المشخّصة على مسرح الطّبيعة، ومثيلاتها الّتي تختلج في النّفس الإنسانية، والّتي تبرز طبيعة الفعل الإنساني كما صوّرها القرآن، فـ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى

[1]- محمّد الطّاهر بن عاشور، المرجع نفسه، ج12، ص:57.

كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾[1].

فهذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثّواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، "وهو مثل أبلغ في النّفوس، إذ فيه إشارة إلى أنّ الأعمال الصّالحة ينمّيها الله عزّ وجلّ لأصحابها، كما ينمّي الزّرع لمن بذره في الأرض الطّيبة"[2].

كذلك رسم لنا الحديث النّبوي الشّريف صورة المؤمن الّذي يقرأ القرآن، فتبنّى منهاج القرآن في التّعبير بالصّورة المشخّصة، إظهارا وإبانة للشّيء المرغّب فيه؛ قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:**(مثل المؤمن الّذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيّب وطعمها طيّب، ومثل المؤمن الّذي لا يقرأ القرآن كمثل التّمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الّذي يقرأ القرآن كمثل الرّيحانة ريحها طيّب وطعمها مرّ، ومثل المنافق الّذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مرّ)**[3].

إنّ في التماس الشّبه للشّيء في غير جنسه، بل بالأحرى تشبيه المؤمن الّذي يقرأ القرآن من دون رياء–وهو أمر غالبا ما يتلبّس بالخفية والتّستّر– بشيء معتاد ومألوف لدى النّاس جميعا، يؤدّي إلى إيضاح المعنى وتبيان المراد، فيزيده وضوحا ويكسبه تأكيدا،

---

[1]– القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(261).

2– إبن كثير، المرجع نفسه، ج1، ص:561.

[3]– مسلم، الصّحيح، دار التّحرير، القاهرة–مصر، 1964، 02/ (كتاب المساجد ومواضع الصّلاة)، ص:194.

كما يؤثّر في النّفس ويحرّكها، ويمكّن المعنى من القلب بنقله من العقل إلى الإحساس.

ومع أنّ كثيرا من المشركين كان لا يرضى عمّا في دعوات الأنبياء إلى التّوحيد والعبادة، ذكر القرآن الكريم في كثير من سوره، أمثالا "تصوّر المعاني بصورة الأشخاص لأنّها أثبت في الأذهان، لاستعانة الذّهن فيها بالحواس، ومن ثمّ كان الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والغائب بالشّاهد"[1].

لقد كان لهذا الأسلوب الإقناعي العظيم المؤدّي إلى تّعظيم المرغّب فيه وتفخيمه، أثر يبعث على القناعة عند المتلقّي (المرغّب) في ما يدعى إليه ويؤمر به.

ولا أدلّ على ذلك من ما في النّص(الآية والحديث المذكورين) من التّعبير الحي، الّذي تتلوّن فيه الصّورة الأدبية بتلوّن الحالات والمقامات، كما تكشفه لنا طبيعة الألفاظ، والإيقاع الموسيقي النّاشيء من تخييرها، وتأليف العبارات ونظمها، وتسلسل معانيها وفق ما يتناسب والجوّ النّفسي الّذي يصاحبها.

وكثيرا ما ينهج التّعبير القرآني في القصّة، منهج التّيسير وعدم التّكليف، لا من حيث ما يحمله الخطاب من معنى فقط، بل من قبيل الفنّ والجمال في التّعبير أيضا، مراعاة لآدمية الإنسان(المتلقّي) وعجزه، كأن يتوجّه إليه بصيغة الأمر والنّهي الصّريحين عندما يتطلّب المقام ذلك، وأحيانا يعبّر بطريقة التّعريض الّتي توحي بالفكرة من غير أن يثار في النّفس معاني أخرى، وحتّى يترك أمام العقل فضاء للتّفكير العميق فيما يعرض له من آيات ليهتدي إلى حسن السّبيل. قال تعالى في سورة

---

[1]- الشّيخ طه عبد الله محمّد السّبعاوي، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1426هـ/2005م، ط1، ص:125.

الأنبياء:﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [1]، ففي نسبة الفعل إلى كبير الأصنام، تعريض بأنّ الصّغار لا تصلح أن تكون آلهة، لأنّها لم تستطع أن تدفع عن نفسها، وبأنّ الكبير لا يصلح أن يكون إلها، لعجزه أن ينهض بمثل هذا العمل[2]. وفي أحايين كثيرة يصيغ المعنى مشخّصا، فيزيده إيضاحا وقربا من ذهن المتلقّي، وفي الآية الكريمة:﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ ﴾[3] ما يجلي عن هذا القصد؛ إذ الخطاب-من خلال الآية- يستعير(من الإستعارة) صفة الزّرع من الزّارع، ويقرنها بالزّوج في علاقة تشابه قائمة على دلالة التّكثير والعمران. ومن هذا الباب يحصل التّرغيب في هذا الأمر.

ومنطق القصّة في القرآن، أنّ دور البطولة فيها يسند لشخص النّبي بمقدار دوره في الموضوع المحوري في القصّة، ومدى قدرة هذه الشّخصية على تحريك الحدث القصصي، ومن ثمّ مدّ القارئ بما يطلبه من قيم، وربطه بالهدف الأساس وهو البعد الدّيني.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الأنبياء الآيتان(62-63)

[2]- أنظر إبن كثير، المرجع نفسه، ج4، ص:570.

[3]- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(223).

وفي هذا الصّدد تمثّل قصّة النّبي يوسف عليه السّلام النّموذج الرّفيع كما هو موصوف من قبل المولى عزّ وجلّ:﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾[1]. فالحدث في قصّة يوسف يتدفّق متتابعا، يبرزه الوصف الدّقيق والمعاني المعبّرة عن المشاعر والإنفعالات والأحوال النّفسية، من حزن النّبي يعقوب، وحقد أبنائه على أخيهم يوسف، وهيام امرأة العزيز بيوسف، ثمّ توبتها واعترافها بخطيئتها،،، وهي أحداث تصنعها شخصية محورية فاعلة/النّبي/، بحضورها المكثّف والمتواصل عبر الأحداث، وقد وصفها التّعبير القرآني وصفا نموذجيّا، كاشفا عن أفكارها وأعمالها وحركاتها، دون أن يرسم ملامحها الخارجية خدمة لأغراض القصّة.

ولمّا كان الحدث في القصّة دينيا، فإنّ المغزى منه مرتبط أساسا بموضوع العقيدة، الّتي جعل منها الخطاب القرآني "ظاهرة تواصل مفتوح على شؤون الإنسان في تجدّدها واسترسال تطوّرها"[2]، وصيّر الأنبياء نموذجا واحدا مكرّرا عبر الأزمان، يدعون إلى القضيّة الكبرى (العقيدة) وإلى نفس الموضوع(التّوحيد) في حوار هاديء مع أقوامهم، دعامته الفكر الخالص.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية(3).

[2]- د/سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص:181 .

والقصّة القرآنية إذ تعطينا معرفة تفصيلية عن مواقف الأنبيـــاء والرّسل في دعواتهم، فإنّها تختار أسلوب العـــرض والتّقريـــر، مصوّرة أحيانا الأحداث بطريقة يبرز اللاّحق منها السّابق، كقصّة يوسف عليه السّلام، حيث تتعدّد المراحل الزّمنية فيها من طفولته إلى كهولته، وتختار أحيانا أخرى طريقة حوارية تعمـــل علـــى تبسيط الفكرة في مجال الجدل بين النّبي وقومه، فضلا علـــى أنّ الحوار"يجسّد الموقف أمام المتلقّي، فيشعر فيه بالحياة المتحرّكـــة الّتي تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جوّ إلى جوّ، ويعيش فيه الأحداث الماضية من خلال أبطالها الّذين يشعر بهم–وهو مندمج في القصّة– يتحرّكون أمامه في أدوارهم وأوضاعهم، كمـــا لـــو كانت حاضرا معه... ولن يقتصر الموقف على الكلمـــات الّتـــي تنطلق منهم، بل يمتدّ الشّعور معه إلى إحساسه بالجوّ الّذي يخيّم على الموقف، وبالمعاني الخفيّة الّتي تختفي وراء الكلمات تماما، كما لو كان البطل يتحدّث إليه، حيث يندمج–معه–بالإيحاء مـــع الكلمة، وبالإحساس الخفي مع الحركة"[1].

وممّا يسترعي الإنتباه في التّعامل مع القصّة القرآنية–دائما–، تلك الدّعامة الأساسية للعملية التّربوية والتّعليمية الّتي يشكّلها الأسلوب القصصي، المرتبط في أفقه بالغاية السّامية الرّامية إلـــى تربيـــة البشرية وهدايتها على ضوء النّهج الإلهي، وترغيبها في النّفـــع الدّنيوي والأخروي، وتحذيرها من عاقبة الشّرور.

مقاصد أسلوب التّرغيب وتجلّياته:

تتأكّد خاصّية التّأثير الّتي تفرّد بها الأسلوب القصصي في القرآن، انطلاقا من تنوّعه–في الحديث عن تاريخ الأنبياء مع

---

[1]– محمّد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، دار المنصوري للنّشر، قسنطينة– الجزائر، ج2، ص:18.

أقوامهم- بين الإجمال والتّفصيل، وبين طريقة الحكاية وطريقة الحوار.
واستنادا إلى تعدّد القصص القرآني في بعض السّور، وتوزيع القصّة الواحدة عبر سور مختلفة، مع الإكتفاء أحيانا أخرى بالإشارة إلى إسم النّبي عبر آية أو بعض الآيات، تستقرّ القصّة في ذهن القاريء، ويثبّت الهدف منها بأخذ أكثر من ملمح لأكثر من واقعة.
وعملا بفكرة أنّ النّص لا ينزل بمعزل عن الواقع، فإنّ مهمّة كلّ نبيّ أنّه بعث في قوم، يدعوهم إلى الله، ويحثّهم على التّوحيد وعلى إفراده بالعبادة، مستعرضا منهجه التّربوي القائم على التّرغيب في خير الدّنيا والآخرة، متّخذا الحوار أسلوبا يثير به القضيّة(الإيمان بالله) الّتي تتحدّى جهل قومه، ويجادلهم بالّتي هي أحسن على أساس الحجّة والدّليل والبرهان، ويعلّمهم بالكلمة الطّيبة كيف يمكن التّطلع إلى آفاق النّور الإلهي، وكيف يمكن الإنتصار على النّوازع الذّاتية. فيختار لذلك، الطّرائق المؤثّرة الّتي تجعل قومه يدخلون في جوّ الفكرة(العقيدة) محلّ الجدل، فيدعوهم إلى التّفكير العميق في مسألة الإله الواحد من موقع الأخوّة ووشائج القربى والمحبّة الّتي تربطه بهم، والّتي تقتضي حرصه الشّديد على ما ينفعهم، وهو الأخ النّاصح-وقد أتاه الله الحكمة-، يقصد مكمن الشّعور لدى قومه، فيذكّرهم بتلك النّعم الّتي أعطاها الله إيّاهم، ليهيّء نفوسهم لقبول دعوته.
ومع أنّه مؤيّد من الله بالبيّنة الّتي تدلّ على صدقه في رسالته، فإنّ أسلوبه الدّعوي يقتضي التّفصيل-غالبا- في الحديث عن نعم الله الّتي لا تعدّ ولا تحصى، كالتّأكيد على عظمة الخالق سبحانه، وقدرته وغلبته-وذلك مبدأ لا يغيب عن مجمل الدّعوات-،

والحرص على ما يشدّ انتباههم لهذه العظمة الّتي من تجلّياتها، إيجاد النّاس واستخلافهم في الأرض[1]، وإغداق النّعم والخيرات عليهم، فهو جلّت قدرته، وبكلّ صفات الكمال المطلق فيه، يطعمهم ويسقيهم ويشفيهم، ويميتهم ويحييهم، ويغفر الذّنوب لهم، لأجل أن يقوموا بمقتضى الشّكر المناسب لتلك النّعم، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[2].

---

[1]- أنظر محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني، المرجع نفسه، ص:307-308.

[2]- القرآن الكريم، سورة إبراهيم، الآيات(32-34).

فحين يكون النّبي هو المبلّغ عن رسالة الله، يستدعي المقام أن يتحدّث–من موقعه هذا– من قاعدة اليقين مرفوقا بالصّدق، بحكم أنّ فكرة الرّفض لدى قومه لا تستند إلى تبرير منطقي، وأن يلامس عقولهم وعواطفهم في آن واحد "لئلاّ تعيش العقيدة جفاف الفكر أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة"[1]، فيعرض قضية العقيدة في مجال المؤثّرات، حيث تتجلّى آثار هذه النّعم في كلّ مشاهد الكون ومناظره.

وعلى ضوء تّرغيبهم وتحبيب هذه الحقيقة إليهم، لما تضمّنته من الخير لهم، يرتقي بموضوع الدّعوة إلى فضاء الأمنية (الوعد) حين يحثّهم على اختيار الخير لأنفسهم من منطلق ذكر الحقيقة العميقة، المتمثّلة في إفراد الخالق بجميع أنواع العبادات، واجتناب ما نهى عنه من الشّرك والمعاصي. أو حين يمنّيهم بنزول الغيث والزّيادة في قوّتهم إذا استغفروا وتابوا، مؤكّدا على ذلك في سياق تعبيري صارت فيه حياتهم المترفة مرتبطة بشرط العودة إلى الله، ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ

[1]– محمّد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، المرجع نفسه، ج2، ص:15 .

رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وكذلك يوجّه خطاب النّبي أفكار المعاندين المكابرين إلى الإيمان من خلال ترغيبهم في الخيرات، فيذكّرهم-من باب تقرير الحقيقة- بأنّ الله وسّع عليهم نعم الدّنيا وأترفهم فيها، لقوله تعالى في سورة الإسراء:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[2]، ليجعل من كلّ ذلك وسيلة لتحفيز الإنسان إلى إقامة الحقّ والخير والعدل، ونشر الإسلام الّذي فيه سعادة الإنسانية أجمع.

وحين يركّز الخطاب القرآني على مواطن الغنى والثّراء والتّرف، وينطلق النّبي في كلمته يلامس مخاطبيه في هذه الجوانب، فإنّما لحكمة قصدها سبحانه وتعالى، أن تجيء القصّة متجاوبة مع غريزة الإنسان، دون أن تنفصل بقيّمها الّتي تحملها، عن تلك القيم الواقعية في الحياة البشرية، على صفة لا يحسّ فيها المتلقّي للخطاب بضغط التّكليف ومشقّة الأمر والنّهي.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآيتان(16-17).

[2]- القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية(70).

ومن جهة أخرى إذا كان القرآن الكريم رسالة إلى الإنسان، وذكرت القصّة فيه لأجل العبرة والموعظة والهداية، فإنّ في ثنايا السّرد التّاريخي لأخبار الأوّلين، وفي مشاهد الحوار القصصي بين النّبي وقومه، ما يكشف لنا عن تلك المواقف الحكيمة للأنبياء في مواجهة التّعصّب والرّفض. حيث تحمل شخصية النّبي خطاب الإثارة الرّامي إلى إيقاظ الضّمير من كبوة التّصلب، وإثارة المشاعر وتحفيزها على الإقبال على النّعيم الدّنيوي المرتبط في أفقه بتلك الغايات السّامية، كالسّعادة والرّاحة والخلود وصحبة النّبي، والحشر مع الشّهداء والصّديقين.

وغالبا ما تتعمّق الوظيفة التّعبيرية أكثر للخطاب، بفعل القصّة الّتي"أصبحت على المدى الطّويل لها دورها في التّأثير، وفي مجرى الحياة من حيث لا يشعر الإنسان"[1]، فيزداد بذلك عرض الدّعوة وضوحا، ويستبين منهجها الّذي تحدو البشرية إليه من خلال الدّعوة الهادئة إلى الله، بالجمع بين التّرغيب الدّنيوي والتّرغيب الأخروي، قصد التّأكيد على الصّورة الحقيقية المتجسّدة في حياة هؤلاء الأنبياء، والّتي يراد لها أن ترتبط بحاضر الإنسان في دعوته إلى الله.

وقد شرع النّبي هود عليه السّلام يذكّر قومه عاد بنعم الله عليهم، وكيف أعطاهم أصول الخيرات من المواشي والبنين والبساتين والأنهار، وأغدق عليهم النّعم الّتي تستوجب عبادته وشكره[2]،

---

[1]- د/محمّد عمارة، الدّعوة من خلال القصّة القرآنية، مجلّة منبر الإسلام، العدد11، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، القاهرة-مصر، 1988، ص:12.

[2]- أنظر محمّد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، المرجع نفسه، ص:389.

فقال:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1]، يريد لهم الدّعوة إلى الإيمان بالله وعبادته وحده، متّخذا من التّرغيب الدّنيوي-بطريقة تقريرية إخبارية- مطيّة لاستمالة قومه وإقناعهم، "وبأسلوب غاية في البيان وإلزام الحجّة والبرهان، وإثارة المشاعر والعواطف، إذ يشعر الإنسان المخاطب به بكرامته وعلو نفسه وكبر منزلته"[2].

ومثلما عرفت القصّة القرآنية "تخريجات سياقية تتنوّع بتنوّع المواقف والمسافات"[3]، فإنّ أسلوب التّرغيب كوسيلة من وسائل القصّ في القرآن، له تخريجات أخرى أيضا بخلاف الوعد والعرض المادي، وتعظيم المرغّب فيه، إذ المتتبّع لشريط الأحداث الواردة في قصص الأنبياء، يتبيّن له واجب الدّعوة الّتي جاء بها هؤلاء بوحي من الله، وقوّتهم هم في حمل الرّسالة الّتي جعلتهم يرتقون إلى مستوى فوق البشرية، في تفعيل أساليب الدّعوة، وممارسة المفهوم الحقيقي للخلافة، بتفكير عميق هادىء لم يتأثّر بانفعالات أقوامهم ومواقفهم المتشنّجة، محاولين-من منطلق الصّدق- استمالة أقوامهم، وتوجيههم نحو ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، دون أن يكلّفوهم أجر التّبليغ (تبليغ الرّسالة)؛ وهي دعوة واحدة يقوم عليها دين الله كلّه، ويتعاقب بها الرّسل

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الشّعراء، الآيات(132-134).

[2]- عبد الوهّاب بن لطف الدّيلمي، معالم الدّعوة في قصص القرآن الكريم، دار المجتمع، جدّة-السّعودية، 258/1.

[3]- د/سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، المرجع نفسه، ص:69 .

جميعا على مدار التّاريخ، "فإن هي كانت مطهّرة عن دنس الطّمع قوي تأثيرها في القلب"[1].

وقد وحّد السّياق القرآني التّعابير التي عبّر بها جميع الرّسل صلوات الله عليهم، مع اختلاف لغاتهم، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2]، وبمثل ذلك حكى الله عن النّبي صالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[3]، وبأسلوب مؤكّد بالأداة "إنّ"، وتقديم ما جاز تأخيره، خاصّين بذلك أنفسهم بالرّسالة "إنّي لكم رسول مبين"، وبالتّنكير "أجرا" مفيدين بذلك التّعميم، أنّ أيّ أجر من أقوامهم مهما كانت طبيعته فهو غير مبتغى، إنّما يبتغون الأجر على دعواتهم من ربّ العالمين، ما دامت مهمّتهم التّبليغ ليس إلاّ.

وهي مهمّة تفرض على النّبي أن يحاكي خلجات النّفس في هدوئها وتموّجاتها، فيأتي خطابه هادئا أحيانا، ويشتدّ حين يجابه بموقف قومه الرّافضين لدعوته، الّذين لم يؤسّسوا فكرتهم الرّافضة على حجج منطقية.

---

[1]- الفخر الرّازي، التّفسير الكبير، المرجع نفسه، ص:10.

[2]- القرآن الكريم، سورة الشّعراء، الآيات(125-127).

[3]- أنظر سورة الشّعراء، الآيات(143-145) و(162-164) و(178-180).

ذلك ما يجعله (النّبي) يكرّر الطّلب ويصرّ على الدّعوة، فيجمع لفكرته مختلف الأدوات المحققة للتّبليغ. حيث كثيرا ما يتوقف الحوار في الخطاب القرآني بين النّبي وقومه، فينزع إلى سياق السّرد والتّقرير والتّذكير بما كان من شأن الرّسل وأقوامهم، كضرب من المثل والإشارة، بهدف إصلاح المعتقد، وتدبير قومه على الوجه الأتمّ.

إنّ السّرد القصصي في الخطاب القرآني يستمدّ مكوّناته فعلا من الحقيقة الّتي عرضت في حياة النّاس خلال معيشتهم، والواقع الّذي عاشه الإنسان عبر تداول الأزمان، إلاّ أنّه يضفي عليها مقوّمات التّأثير وخصائص التّفاعل بتصويره لكلّ تلك القصص، وربطها بواقع حال المتلقّي تحت فاعلية التّأثّر، فكان هذا الخطاب مرتبطا بمصارعة المفاهيم القديمة على مستوى الفكر، والدّعوة إلى المفاهيم الجديدة الّتي تؤسّس لنظام حياتي شامل.

وكذلك الدّين في استجابته الطّبيعية لحاجات النّفس البشرية، لا يدعو في جوهره إلاّ إلى الفضائل الإنسانية الّتي توصل المتلقّي بمضمون الخطاب القرآني في تعبيره الرّائع.

وبهذا يلتقي الفنّ مع الدّين في أعلى المراتب وأمثل الغايات، "فكلاهما يضيء من مشكاة واحدة، هي ذلك القبس العلوي الّذي يملأ قلب الإنسان بالرّاحة والصّفاء والإيمان... وإنّ مصدر الجمال في الفنّ هو ذلك الشّعور بالسّمو الّذي يغمر نفس الإنسان عند اتّصاله بالأثر الفنّي... من أجل هذا كان لا بدّ للفنّ أن يكون مثل الدّين قائما على قواعد الأخلاق"[1]... ولذلك "فإنّ النّص/القرآن/ الّذي يخاطب محمّدا-صلّى الله عليه وسلّم-

[1]- توفيق الحكيم، فنّ الأدب، دار الكتاب اللّبناني، بيروت-لبنان، 1973، ط2، ص:74.

ويستجيب لهمومه الّتي هي همـــوم الواقـــع، يتجـــاوز موقـــف الإستجابة السّلبي إلى محاولة صياغة واقع جديد"[1].

وبهذا المفهوم نرى القصّة القرآنية قد ارتبطت–في الغالب– بسير الأنبياء والرّسل، سجّلت تاريخهم الحافل بالأحداث مـــع أقـــوام طواهم الدّهر، ونوّعت في طريقة عرض ذلك كلّه بين الحـــوار والسّرد والتّقرير، فكان لها حضـــورها المتواصـــل فـــي ذهـــن المتلقّي، وتأثيرها القويّ في فضاء المعرفة، لأنّها تمدّ الإنســـان بسلاح الإيمان والثّبات من خلال واقعيتها وصدقها.

ولذلك "ورد القصص القرآني في مواضع ومناســـبات متباينـــة، حدّدت بدورها مسار القصّة، والحلقـــة الّتـــي عرضـــت منهـــا، والصّورة الّتي أتت عليها، والطّريقة الّتي أدّيت بها، تنسيقا للجوّ الرّوحي والفكري والفنّي الّذي عرضت فيـــه، لتحقّـــق غايتهـــا النّفسية وتلقي إيقاعها المطلوب"[2].

وهكذا كان الإلتزام في القصّة القرآنية موصولا بالغاية منها، وممثّلا فنّيا في تجدّد أسلوبها، وتفنّن عرضها، وتنوّع أدائها. فجاء من القصص القرآنية ما تقدّم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد، كقصّة موسى والخضر ويوسف، وقصّة صاحب الجنّتين وذي القرنين وغيرها. ومنها ما تقدّم في حلقات يخصّ بكلّ حلقة منها معرض يتطلّب هذه الحلقة من القصّة.

وفي كلّ الأحوال فهي مجملة إجمالا، لا نكاد نحسّ فيها بوجود فاصل يعترض المسار الطّبيعي لأحداثها، فهي ذات وحدة في الموضوع ووحدة في النّسق ووحدة في المنهج التّأثيري، مثلها

---

[1]– نصر حامد أبو زيد، المرجع نفسه، ص:69.

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، م1، ص:55.

"مثل الآية في السّورة، تمثّل اللّبنة في البنية المحكمة القويّة"[1].
وقد استأثرت لنفسها طريقة عرض خاصّة، تتماشى والمقصد الّذي ترمي إليه، فأعطت بصدقها روعة في الأداء الفنّي، "وبالتّالي شكّل هذا المنهج أبرز الخصائص الفنّية في القصّة القرآنية، ومظهرا من مظاهر الإعجاز فيها"[2].
فالّذي نجده في قصّة يوسف عليه السّلام مثلا، من روعة البيان وجلال العرض، ومن استعلاء بالنّفس وقيادتها إلى موقع الخير، نجده كذلك في قصص أخرى مثيلاتها. وقد كان يوسف الصّديق صادقا في تفسيره رؤيا صاحبيه في السّجن، ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن

[1]- د/ابراهيم عوضين، البيان القصصي في القرآن الكريم، المرجع نفسه، ص:162.
[2]- أنظر مالك بن نبي، الظّاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق– سوريا، 1984، ط4، ص:60.

نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

غير أنّ الرّوعة في نقل الحدث وهو تفسير الرّؤيا، أنّ التّعبير القرآني-في الآيتين- لا ينقل الحدث/الرّؤيا/ من حيث هو كذلك وكفى، بل يستعمل طريقة الحكي على لسان النّبي يوسف، في أنّه صلوات الله وسلامه عليه، سيؤوّل لهما رؤياهما ممّا علّمه ربّه، فاستعمل "من" التّبعيضية ليشعرهما بأنّ تأويله جزء ممّا علّمه ذو القدرة المتين. وفي هذا الأسلوب إيحاء بالتّأكيد على ألوهية المصدر الّذي أخذ منه يوسف الحقّ والمعرفة، وهو الله المتّصف بصفات الكمال والجلال، وهو التّوحيد في عبادته، الّذي يستقيم معه الدّين الدّي دلّ عليه صدق نبوّة يوسف في تأويله الرّؤيا. وقد وصلت دعوته مبتغاها، وحقّقت غرضها عن طريق ترغيبه صاحبيه في السّجن في الموهبة الّتي وهبها الله إيّاه، جزاء تجرّده لعبادته وحده، لكي يتركا ومن كان من القوم منهم ملّة الكفر والشّرك، وليتمسّكوا بملّة التّوحيد الخالص[2].

والأمر مع الخطاب القرآني، أنّه يعتمد في القصّة على الحجّة العقلية والبرهان القاطع، الّذي يحمل المتلقّي لهذا الخطاب على التّفاعل الإيجابي معه. فإذا ما اشتغل العقل في هذا الخطاب، تحقّقت فاعلية القصّة، وتيسّر التّواصل معها، ممّا يؤدّي ذلك إلى الإقناع الّذي يفرض المشاركة بين الطّرفين المتحاورين دون

---

[1]- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآيتان(37-38).

[2]- أنظر إبن كثير، المرجع نفسه، ج4، ص:27-28.

إكراه. غير أنّ موضوع الإقناع هنا لا يتحقق إلاّ بواسطة الألفاظ والعبارات، وما تحدثه بدورها من تأثير، إنطلاقا من خصوصيتها الدّلالية الفنّية، وهذا سرّ فصل جملة (ذلكما ممّا علّمني ربّي)[1] في خطاب النّبي يوسف عليه السّلام، فهو يرتقي بالمعنى/علم تفسير الرّؤيا/ من سياق الإخبار إلى سياق التّوجيه.

ومعلوم أنّ هذه الطّريقة ميزة في خطاب الأنبياء، تبنى على قواعد أخلاقية تأخذ بمبدأ النّفع المتعدّي على المخاطب.

فهذا موسى عليه السّلام في ردّه على سؤال فرعون(من ربّكما يا موسى؟)، يعرّفه له بآثار ملكه سبحانه وتعالى في الأنفس، وتصرّفه في الكون، وتدبيره شؤون الخلق، ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن

[1]– عبد الصّمد عبد الله محمّد، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم(خصائصه التّركيبية وصوره البيانية)، مكتبة الزّهراء، القاهرة–مصر، 1998م، ط1، ص:66.

نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]، وكلّها آيات شاهدة على وحدانيته الّتي تستحقّ عبادته وحده.

ولذلك اختار النّبي موسى عليه السّلام في خطابه لفرعون، ما يفيد الخبر من كلامه، ممّا يثير إمكانية التّفكير فيه، وينتج الأحكام ويثبّتها في العقل، ليقيمها حجّة بالغة على فرعون في قضيّة الإيمان. ويستعمل من أساليب التّأثير ما يدعّم هذا الأمر، وهو الأسلوب الخبري الّذي يقتضي التّذكير بنعم الله على النّاس جميعا، ثمّ الإنتقال إلى الإنشاء (كلوا وارعوا) الّذي يؤكّد على الإقرار بوجود هذه النّعم، لتكون بمثابة الحجّة الّتي تقدّم للإقناع، إذ لأجله طلب موسى الفصاحة والبيان، فقال:﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، ودون أن يحسّ المخاطب بسلطة الخطاب الّذي يسلبه الحريّة فيما يعتقد، سيما وأنّه خطاب متعلّق بالنّفع والفائدة، المرتبطة بأقصى ما يمكن من الخيرات.

من ثمّ فاشتمال السّورة القرآنية الواحدة على قدر كبير من قصص الأنبياء والمرسلين إنّما لغاية من غايات القصّة، وللإستجابة مع الأحداث والمواقف الّتي لا تعرض في الحقيقة

---

[1]- القرآن الكريم، سورة طه، الآيات(49-54).

[2]- القرآن الكريم، سورة طه، الآيتان(27-28).

مقصودة لذاتها، بل إنّ العرض القصصي في تصـــويره لتلـــك الأحداث، يبرز تماثل موقف كلّ نبي مع قومه، مع موقف النّبي محمّد صلوات الله عليه مع مشركي مكّة، يســـتعرض المواقـــف لردع المتعنّتين من قريش، وتهديدهم تهديدا صريحا من خـــلال تذكيرهم باستكبار المشركين من كلّ قوم.
ويحرص على إبراز العاقبة السّيئة للمستهزئين بالرّسل، من أجل التّسرية على النّبي صلّى الله عليه وسلّم. قال تبارك وتعالى:﴿

وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ
ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا
لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ
أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ
عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ
هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ

كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

وهو مثال صادق يستمدّ واقعيته وصدقه من اقترانه بالقصّ في كثير من آي القرآن الكريم، جاء ليحمل المتلقي على استخلاص العبرة الّتي تخدم حاضر الدّعوة المحمّدية ومستقبل الأمّة.

ولذلك استرسل الخطاب القرآني من خلال سياقات متعدّدة ومتنوّعة في إبراز المصير المحتوم لكلّ قوم كذّبوا المرسلين، قصد تجذير العقيدة، وتغيير ما في النّفوس من شرك وجهالة.

[1]– القرآن الكريم، سورة الأحقاف، الآيات(21– 25)، وانظر سورة الذّاريات(41 – 42)، والقمر(18–20)، والحاقة(6–8)، والفجر(13–14).

الفصل الثّالث

العرض القصصي لقضيّة التّرهيب

تمهيد:

إذا ظلّ أسلوب التّرغيب في الخطاب القرآني يحقّق إبلاغيته من منطلق قربه من النّفوس البشرية وتفاعله معها، فإنّه في القصّة القرآنية–إلى جانب ذلك– يضئ الحدث ويسمح له أن يسهم في تنمية الفكرة العامة للقصّة بمنطق يرتكز على التّصوير–كما سبق ذكره في الفصل الثّاني من هذا البحث–، وبارتباطه بأسلوب آخر ذي منحى تهذيبي إصلاحي يدخل في العملية الإقناعية، هو أسلوب الإنذار والتّخويف، استخدمته القصّة القرآنية بالشّكل الّذي يصلح البشرية، ويقوّم أخلاقها ويهذّب نفسيتها.

وتباعا، يحقّق من خلال علاقته بأسلوب التّرغيب، ثنائية ضدّية متكاملة الدّلالة، ويجلي قمّة الإثارة الجمالية في القصّة القرآنية على الرّغم من قيّامها على الحقائق المطلقة.

العرض القصصي لقضيّة التّرهيب:

إنّ الإنتقال في أسلوب القصّة القرآنية من معنى الترّغيب إلى معنى التّرهيب له مغزى بلاغي؛ هو نقل القارئ من شعور إلى شعور، ومن تفكير إلى آخر، ليعيش بروحه ونفسه وعقله ووجدانه وبكلّ كيانه مع الأحداث المقصوصة، ويتفاعل معها ومع كلّ الشّخصيات وهي تتحرّك في الزّمان والمكان والإطار الّذي رسمته القصّة القرآنية، حتّى يتمّ بذلك نوع من التّماهي دون أن يلحظ في ذلك الإنتقال تكلّفا أو استطرادا مملاّ، فتصير "كلّ بنية إشارية تنقل معنى محدّدا ومكتملا هي نصّ"[1].

[1]– وليد منير، النّص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997، ط1، ص:13.

والتّرهيب كمفهوم، مرتبط بالدّعوة، وكمنهج، بالخطاب القرآني، وكأسلوب بالقصّة القرآنية؛ يشكّل نظاما ثقافيّا رئيسيّا في منظومة القرآن الكريم، وأداة تبليغية هامّة في الحياة العملية لكلّ إنسان، اعتبارا من أنّه/الإنسان/ يرتقي ويسمو بطبعه وأخلاقه إذا وجد من يبعده وينفّره عن الشّر.

ولا أدلّ على ذلك من كثرة ورود أسلوب التّرهيب في القصص المكّي، إذ المقام يقتضي التّذكير والوعيد، وأساليب التّغليظ والتّكرار اللّفظي المتجدّدة معانيه في آيات قصيرة موجزة، مادام المخاطبون من المكّيين كانوا غلاظا جفاة، ولهم مالهم من حسن فهم وقوّة ذكاء، وما طبعوا عليه من صناعة الكلام.

ثمّ أنّ القصص القرآني المكّي، يحمل وحدة دلالية كلّية تتمثّل في أنّه يتحدّث عن قضيّة العقيدة وما يتعلّق بها من ذكر آلاء الله والجنّة والنّار وغيرها، وهي دلالة مثّلت قمّة التّماسك في النّص القصصي انطلاقا من مراعاة العلاقة بين المرسل/الله، النّبي/ والنّص والمتلقّي. حيث أنّ المتلقّي وهو يمثّل جزءا أساسيا من العملية النّصية/اللّغويه/ لا يمكن أن يوجد منفصلا عن النّص، إذ يبدو وكأنّه هو نفسه جزء من المشاهد الّتي تعبّر عنها القصّة وتصوّرها.

وإذا لوحظ في الخطاب القرآني بأنّ القصّة لم تستغرق السّورة القرآنية كلّها، بل هي واحدة من القصص المذكور في السّورة، كقصّة موسى عليه السّلام الّذي يعتبر من أكثر الأنبياء ورودا في القرآن الكريم "ذكر في أربع وثلاثين سورة، منها سبع وعشرون مكّية، تليها قصّة النّبي إبراهيم عليه السّلام من حيث عدد مرّات ورودها في القرآن الكريم، حيث وردت في خمس وعشرين

سورة، منها ستّة عشر مكّية"[1]، فمعنى ذلك أنّ كلّ سورة تمثّل مرحلة من مراحل القصّة، يصنع أحداثها النّبي الواحد المكلّف بالدّعوة الواحدة، ممّا يثبت ذلك التّماسك بين نصوص القصّة الواحدة المذكورة في أكثر من سورة، ويؤكّد الوحدة الدّلالية بين جميع القصص، بل الوحدة الشّكلية أيضا، والّتي تظهر على مستوى الكلمة الواحدة المردّدة على لسان كلّ نبي.

كما تتحدّد/الوحدة الشّكلية/ على مستوى الآية كأساس للنّظم والتّأليف القرآنيين، حيث وإن كانت/الآية/ "مفارقة لغيرها من المصطلحات القرآنية والمصطلحات الأخرى من كلام العرب"[2]، إلاّ أنّها لم تخرج عن قوانين اللّسان العربي الّذي أنزلت به، بل بقيت مرتبطة به ومستندة إلى قوانينه تلك، تمكينا للبشر من فهمها والوقوف على دلالاتها الّتي هم مكلّفون بإدراكها.

وإذا كان من المعاني اللّغوية للآية معنى العبرة، لما فيها من قصص وأمثال يتّعظ بها المؤتمر والمزدجر على حدّ سواء، فإنّ ارتباط أسلوب التّرهيب بالقصّة القرآنية يصبح أمرا واقعا في الخطاب القرآني، تتأسّس الآية فيه على تخريجات معجمية وصرفية ونحوية وصوتية متنوّعة تحقيقا للإبلاغية.

والتّرهيب لغة من: رهب، يرهب رهبة، ورهبا، ورهبا، أي: خاف، ورهب الشّئ رهبا ورهبة: خافه، وترهّب غيره، إذا توعّده[3]. قد وردت مادّته "رهب" في القرآن الكريم في مواضع

---

[1]- د/صبحي إبراهيم الفقّي، علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق، دار قباء، القاهرة-مصر، 2000، ط1، ج2، ص:175.

[2]- مجلّة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، عدد:05/ 1994، ص:120.

[3]- أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور(ت:711هـ/1311م)، لسان العرب، طبعة دار الفكر، بيروت-لبنان، 436/01 .

منها، قوله عزّ وجلّ:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1]، وقوله تعالى:﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[2].

كما تكرّر أسلوب التّرهيب في القصّة القرآنية وعلى مستويات متعدّدة، تجاوزت الإشتقاق اللّفظي للكلمة إلى السّياق التّعبيري ككلّ الّذي تضمّنه هذا المفهوم، ممّا يوحي بالعلاقة بين التّركيب والدّلالة، ومن ثمّ تحقيق التّرابط بين العناصر المكوّنة للنّص القصصي.

والسّياق التّعبيري في مفهومه التّرهيبي داخل النّص القصصي، لم يتقيّد ببنائه اللّغوي المألوف في لغة العرب، بل تجاوز أصناف الكلام وأنواعه وأجناسه، وتعدّاه زيادة على الفصاحة والبلاغة والبيان، إلى حسن النّظم والتّأليف، فتفرّد بجانبه الحركي للمضمون المتجدّد، وخلق لنفسه طاقة إيحائية في الأسلوب، كان لها أثر دلالي كبير، وقيمة فنّية هائلة أبرزتها الخصائص التّركيبية التّالية:

1- التّقديم والتّأخير:

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية(60).

[2]- القرآن الكريم، سورة الحشر، الآية(13).

ويقع في الخطاب القرآني بشكل كبير، ذلك أنّ اللّغة الّتي نزل بها القرآن الكريم، تعتمد الإعراب في تحديد صفتها النّحوية، دون أن يحدّد موقع الكلمة في السّياق صفتها تلك، الشّيء الّذي يكسبها حريّة الحركة داخل الجملة، وبالتّالي القدرة على إظهار ترتيب المعاني في النّفس، وقد جاء في دلائل الإعجاز "بأنّها/الكلمات/ تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النّفس"[1].

والخطاب القرآني حين ينهج في ترتيب كلماته هذا المنهج الفنّي، فإنّه يشير إلى مغزى ويدلّ على هدف؛ ذلك أنّ مخالفته للقواعد النّحوية المألوفة في الخطاب العربي والّتي "تقتضي تقديم الفعل على الفاعل والمبتدأ على الخبر والموصول على الصّلة والموصوف على الصّفة"[2]، وغير ذلك كثير، يتعلقّ بدلالة ما، "تتمّ من خلال عوامل نفسية تكتنف عملية التّخاطب، كتخويف السّامع وترهيبه"[3].

ثمّ أنّ لتحوّل اللّفظ في سياق القصّة القرآنية عن مكان إلى مكان، أبعاد جمالية؛ معنوية وصوتية، تكشف لنا عن دلالات النّص الفكرية والنّفسية، ممّا يجعل المتلّقي يقف على دلالات التّراكيب، ويعيش في ظلالها، ويستبطن المعاني ويتأثّر بها.

---

[1]– أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمان بن محمّد الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت–لبنان، 1978، ص: 40. وانظر مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العرب، مطبعة الإستقامة، القاهرة–مصر، 1373هـ/1953م، ط3، ج2، ص:47 وما بعدها.

[2]– د/محمّد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، الشّركة المصرية العالمية للنّشر، القاهرة–مصر، 1994، ط1، ص:201

[3]– د/عهود عبد الواحد، الصّور المدنية(دراسة بلاغية وأسلوبية)، دار الفكر للطّباعة والنّشر، عمان–الأردن، 1999، ط1، ص:151.

وطالما كان الغرض الأساس الّذي ترمي إليه القصّة القرآنية هو قضيّة العقيدة ممثّلة في قاعدتها الرّئيسية، الألوهية والرّبوبية وما بينهما من علاقة، فإنّ بنية التّقديم والتّأخير، خصوصا شبه الجملة "الجار والمجرور" والّذي يعدّ من أكثر أنواع التّقديم بروزا في الخطاب القرآني[1]، والمفيد لغرض الإختصاص غالبا، تتأتّى دلالته من كون المعاني الّتي تقدم عليها عائدة إلى المخاطب الأوّل/الله/، ممّا يعزّز المعاني الدّينية الّتي حرص الخطاب القرآني على ترسيخها في أذهان المتلقّين، من حيث أنّ السّياق التّعبيري بهذه الخاصّية/التّقديم والتّأخير/ في عرضه لأحداث القصّة وتصويره لمصائر المكذّبين برسالات الأنبياء، يجعل نتيجة الفعل(التّكذيب) مختصّة بالله جلّت قدرته، وبمن أسندت لهم(الملائكة) أهلية الفعل العقابي، قال تعالى:﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾[2].

ففي الآية تقديم(الّذين كفروا) على المسند إليه/الملائكة/ لجعل العذاب مختصّا بهم، "وإنّما خصّوهما بالضّرب لأنّ الخزي

---

[1]- أنظر د/عبد الصّمد عبد الله محمّد، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، المرجع نفسه، الفصل الأوّل(مسائل علم المعاني الواردة في خطاب الأنبياء)، ص:169.

[2]- القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية(50).

والنّكال في ضربهما أشدّ"[1]، وأنّ في ذلك غاية التّخويف من سوء العاقبة والتّرهيب من عذاب الآخرة.

وكيفما كان المقدّم في النّسق التّعبيري، فإنّ للقرآن الكريم أسلوبا متفرّدا يجري فيه نظام خاصّ، ويراعى فيه التّقديم والتّأخير؛ فلا يتقدّم لفظ أو يتأخّر إلاّ لغرض من الأغراض المتعدّدة، نحوية كانت أو بلاغية أو صوتية أو غيرها. وهي آليات اعتمدها الخطاب القرآني لتحقيق الهدف الدّيني بالدّرجة الأولى من خلال عقد الصّلة بين النّفس الإنسانية المتلقّية للخطاب، وما يلقيه فيها- على ضوء عرض مصائر الأقوام الكافرة- من ترهيب، قال تبارك وتعالى:﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2].

ومن هذا الباب ينهج الخطاب في القصّة القرآنية، في ترتيب كلماته، هذا المنهج الفنّي الّذي يقدّم ما يقدّم ويؤخّر ما يؤخّر، لمعنى نفهمه من وراء رصف الألفاظ، وحكمة ندركها من هذا النّسج المحكم المتين.

ومجمل القول أنّ أهمّية هذا النّوع من النّظم في الأسلوب القرآني، تتّضح فيما يتضمّنه من حكم بالغة، لأنّ "كلّ تقديم وتأخير فيه حكمة بالغة وقدرة فائقة، ليس فيه ما يفسد المعنى، وإنّما فيه الواضح الجليّ البليغ، وليس هناك ما يقوم مقامه، فكأنّ

---

[1]- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار المعرفة، بيروت-لبنان، (بدون تاريخ)، ط1، ص:131.

[2]- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(55).

المعنى يقتضي ما تقدّم أو تأخّر، اقتضاء طبيعيا بما يؤثّر في المتلقّي تأثيرا واضحا"[1].

وفضلا عن ذلك فإنّ الخطاب القرآني حينما يصف القصّة القرآنية بأنّها أحسن القصص(نحن نقصّ عليك أحسن القصص)، فلكونها "حقيقة ثابتة من حقائق الحياة المخلوقة، بدايتها تتسلك في سير الزّمن كأيّ حدث آخر، ونهايتها تقف بالقارئ ذهنيّا عند تمام القصّة، ثمّ تتركه لتمضي في هوّة الزّمن المنصرم بعد أن تكون قد حدّدت للقارئ نموذجا من النّماذج التّعبيرية"[2].

وعليه فقد قفز التّعبير الفنّي في منهج القصّة القرآنية عن الكثير من التّفاصيل المرتبطة بالحدث والشّخصية والزّمان والمكان، إلى حدّ التّنويع في طريقة عرض الأحداث، ورسم الشّخصيات وحذف بعض مقوّماتها، وعدم تحديد الزّمان والمكان، تحقيقا للغرض الدّيني للقصّة عن طريق الجمال الفنّي، وإذ ذاك يذكر السّياق التّعبيري في القصّة ما يذكره ويحذف ما يحذفه، تثبيتا للمعنى وتوطيدا له في النّفس.

2- **الحذف:**

والحذف "نسق من أنساق الآداء في القصّة القرآنية، يعتري الحدث والشّخصية والزّمان والمكان، بقدر ما يعتري الجملة والمفرد والحرف والحركة"[3]. فإذا كانت القصّة القرآنية

---

[1]- محمّد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم،، جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي-ليبيا، 1996م، ط1، ص:309.

[2]- د/أحمد خالد أبو جندي، الجانب الفنّي في القصّة القرآنية(منهجها وأسس بنائها)، دار الشّهاب للطّباعة والنّشر، باتنة-الجزائر، ص:147.

[3]- د/صبحي إبراهيم الفقّي، علم اللّغة النّصي، المرجع نفسه، ص:193.

الواحدة تتكرّر أكثر من مرّة، لتكون مشتملة على معاني جديدة في الحالة الأولى عن غير الّتي تشتمل عليها في الحالات الأخرى، أو متّجهة إلى هدف غير الّذي تتّجه إليه في المرّة أو المرّات السّابقة في القصص المعاد، فإنّها في بنائها ذلك تمثّل النّموذج الفنّي الأمثل في التّناسب بين جميع عناصرها، من حيث أنّها تبرز دور كلّ عنصر وآداءه وأهميّته في إرسال القصد.

مع أنّ منهجها الفنّي أحيانا يهمل–فنّيا– واحدا من هذه العناصر أو يتصرّف فيه لغايات محدّدة يقتضيها المقام، أو يتجاوزها لأنّها مفهومة من السّياق. وهذا الحذف شائع وجوده في حكاية إرسال معظم الأنبياء، وتخويفهم لمن صدّ عن دعواهم، من ذلك قوله تبارك وتعالى:﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ ﴾[1]، فالسّياق في الآية الكريمة يذكر إرسال الله نوحا إلى قومه، بخطاب يحمل لهم التّرهيب من عذاب يوم عظيم، دون الإشارة إلى ذلك الموقف الّذي امتثل فيه النّبي نوح لأمر ربّه، وذهابه إلى قومه وجمعه لهم.

وإذا، فهذا التّصرّف العجيب في القصص القرآني وظهوره ظهور المعجزة، يأتي في تساوق معجز متّصل بالأداء الأسلوبي، والّذي منه حذف جملة جواب الشّرط (لمّا أنكروا البعث ولمّا

[1]– القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(59).

تمادوا في كفرهم) في قوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]، إذ في ذلك بعث للنّفس على التّدبّر والتّفكير، ممّا يعني بأنّ هذا الجواب وارد، وأنّ في حذفه إشارة إلى تعيينه، ودلالة على مثوله في ذهن المتلّقي، حيث أنّ علم المعني بالخطاب بأنّه سيعرض للنّار تكوي وجهه ولا ناصر له، يحمله على اتّقائها وتجنّبها.

كما يحذف المفعول به/الإسم/ في مقام الإنذار والتّهديد لإدخال الرّعب في قلوب المنذرين، من ذلك ما قاله النّبي هود لقومه:﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ

[1]- القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآيتان(38-39).

ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾[1]. ففي حذف مفعول "انتظروا" شدّ لنفس المخاطب وإعمال لفكره، وتصوير فظيع لنوع العقاب، وذلك أبلغ للتّخويف والتّرهيب. كذلك يحذف الحرف في السّياق القصصي من باب استعمال وقوع العذاب وطلبا لسرعة تحقيقه، في مثل قول نوح عيه السّلام مستنصرا ربّه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، ففي حذف حرف النّداء(يا ربّ) دلالة صريحة على إحساس النّبي بقربه من الله الّذي وعده بالنّصر، وإشارة إلى ترهيب قومه المكذّبين.

وهكذا يتلوّن الخطاب القرآني بتلوّن السّياق، ويتنوّع بتنوّع المقام، فيذكر ما يذكره من اللّفظ عندما يكون في هذا الذّكر تثبيتا للمعنى، وتوطيدا له في النّفس، ويحذف ما يجيز حذفه مع بقاء قرينة واضحة–دلالية كانت أو شكلية– تدلّ على المحذوف، "وليس شيئ من ذلك–أي من الحذف–إلاّ عن دليل عليه، وإلاّ كان فيه ضرب تكليف علم الغيب من معرفته"[3]، دون أن يغفل في وعيده منهجه الّذي يتّجه إلى إثارة وجدان المتلّقي ليستميله، أو إلى تفكيره ليقنعه، لأنّ إثارة الخوف في النّفس وما يحدثه فيها من رهبة، جدير بأن يدفع بالمخاطب إلى التّفكير العميق للتّخلّص من أسبابه.

---

[1]– القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(71).

[2]– القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية(26).

[3]– أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت–لبنان، (بدون تاريخ)، ط2، ص:360.

ومواطن الحسن في الخطاب القرآني لا تقف عند حدود الكلمة من حيث بنائها أو طبيعتها الصّوتية أو صيغها المتنوّعة، بل تتعدّاه إلى موضعها داخل السّياق، تستخدم حيث تؤدّي معناها في دقّة فائقة، وحيث تحقّق مع أخرياتها–في إطار التّجاور أو التّقابل–تناسقا يفضي بها إلى تتبّع المعنى فتصوّره لتلقيه في النّفس.

وسواء كان التّقابل بين الكلمة والكلمة والجملة والجملة، أو بين الفقرة والفقرة والسّورة والسّورة، فإنّه لا يحول في كلّ الأحوال دون التّماسك بين أحداث القصّة الواحدة. ممّا يوحي لنا بوحدة الموضوع الّذي تعالجه السّورة، والإطار الّذي تتحرّك فيه، وكذا الظّروف المنسوبة إلى كلّ قصّة، والّتي يمكن توحيدها في الدّعوة والتّكذيب، وهي القاعدة الّتي تأسّس عليها الخطاب في القصّة القرآنية.

ولعلّ ما يؤكّد هذا المعنى أكثر قول السّيوطي: "ذكر الآية بعد الأخرى إمّا أن يكون ظاهر الإرتباط لتعلّق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثّانية للأولى على وجه التّأكيد أو التّفسير أو الإعتراض أو البدل؛ وهذا القسم لا كلام فيه، وإمّا ألاّ يظهر الإرتباط بل يظهر أنّ كلّ جملة مستقلّة عن الأخرى، وأنّها خلاف النّوع المبدوء به. فأمّا أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أوّلا؛ فإن كانت معطوفة فلا بدّ أن يكون بينهما جهة جامعة... كالتّضاد بين القبض والبسط... وشبه التّضاد بين

السّماء والأرض... وإن لم تكن معطوفة، فلا بدّ من دعامة تؤذن باتّصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالرّبط"[1].

3- العلاقة الضّدّية:

والعلاقة الضّدية آلية أخرى من آليات الخطاب القرآني، ونسق من الأنساق التّعبيرية في القصّة القرآنية أيضا، يتحقّق بين الآيات الّتي تتحدّث عن النّعيم، والّتي تتحدّث عن العذاب، وتلك الّتي تتحدّث عن البشرى، والّتي تتحدّث عن النّذير، كما يتأتّى من خلال جمال الألفاظ وحسن اختيارها، حيث تلائم كلّ لفظة ما قبلها، وترتبط دلاليا بما بعدها، فتوحي إلى النّفس بالمعنى وحيا، وتشعرها به شعورا عميقا بالخوف من هول يوم يجمع فيه النّاس، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً

---

[1]- جلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التّراث، القاهرة-مصر، (بدون تاريخ)، ص:327.

غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1] يوم خصّ فيه سبحانه وتعالى بالذّكر من أحوال الأشقياء في جهنّم الزّفير والشّهيق، تنفيرا من أسباب المصير إلى النّار، كما خصّ بالذّكر من أحوال السّعداء في الجنّة النّعيم، وههنا جملة(ما دامت السّماوات والأرض) دالّة على إثبات الحكم بخلود الفريقين في الجنّة والنّار، وعلى أنّ المشيئة قد حصلت بالجزم[2].

لقد طلب النّسق التّعبيري هذا الوصف وألحّ عليه، فقابل بين صفات فئتين متقابلتين في الأعمال الدّنيوية، ليبرز الصّورة الحقيقية لكلّ فريق، وجزاء كلّ منهما في الحياة الأخروية، وليثري دلالة التّخويف من العقاب، والتّنفير من سوء الأعمال.

إنّ العلاقة الضدّية لازمة من اللّوازم الّتي اعتمدها الأسلوب القصصي في القرآن، للكشف عن المعنى بما يثير دافعي الرّغبة والرّهبة لدى المخاطبين، قصد إصلاح نفوسهم وتهذيب عقولهم.

وهذه هي الغاية الّتي قصدها القصص المكّي خاصّة، سيما في اعتنائه بالحديث عن اليوم الآخر، باعتبار أنّ الإيمان به يعدّ الدّعامة الأولى في بناء الدّين كلّه.

ويقرّب الأسلوب القرآني أمر هذا اليوم أكثر إلى نفوس المخاطبين من خلال رسمه للطّبيعة وحال النّاس فيه، موّجها أنظارهم إلى تلك الحركة المضطربة الّتي تصيب الحيّ والجامد يوم القيّامة، مقرنا ذلك بتعداد صفات الله وبيان مظاهر قدرته

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(106-108).

[2]- أنظر إبن عاشور، المرجع نفسه، ص:165. والفخر الرّازي، المرجع نفسه، ص:65.

على الوعيد. قال تعالى:﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩ ﴾[1].

فعلى طريقة القرآن في التّرهيب، تذكر لنا الآية ما أعدّ الله للكفّار من الهوان يوم القيامة، وكيف هيّأ لهم نارا حامية تشوي وجوههم، فإذا ما اشتدّ بهم العطش وطلبوا الماء أغيثوا بماء شديد الحرارة[2].

مقاصد وتجلّيات أسلوب التّرهيب:

إنّ التّخويف والإنذار بالعذاب، من أغراض القرآن الكريم كلّه، غير أنّ احتفاء القصص القرآني به والعناية بأمره، يتأتّى من كون أنّ للقصص القرآني من التّأثير على النّفوس بمقتضى فطرها، ما ليس لغيره من ألوان القول، فهو يبيّن أنّ ما أنذر الله سبحانه به من العذاب قد وقع فعلا[3]. قال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية(29).

[2]- أنظر القرطبي، المرجع نفسه، ص:394. وابن كثير، المرجع نفسه، ج4، ص:385، والصّابوني، المرجع نفسه، ص:190.

[3]- قال تعالى: (فكذّبوه فأخذهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)، وقال: (فكلاّ أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصّيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) سورة العنكبوت، الآية(37-40).

جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[1].

ثمّ إنّ حرص الخطاب القرآني على تبليغ هذه الغاية وردع النّفوس المستكبرة، إنّما يجليه تكرار القصّة الواحدة في أكثر من مناسبة لمضاعفة آثارها المرغوبة، واستخدام أسلوب التّرهيب بنوعيه المادي والمعنوي الّذي يصلح البشرية ويقوّم أخلاقها.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآيات(37-40).

1- التّرهيب المادي:

أليس من باب إسقاط عقيدة الشّرك وتقويم النّفوس من الزّيغ أن يتنوّع الأسلوب القصصي في طرائقه التّعبيرية، لتتضافر مع الإنذار والتّهديد في توهين ما كان عليه النّاس من قبل، ورفع المستوى الإنساني إلى مصاف الفضيلة؟.

لذلك فأهميّة هذا المعنى(التّرهيب) في القصّة القرآنية يحملها في ذاته، من حيث أنّ القرآن الكريم حين يوازن بين الحياة الدّنيا والآخرة، يجعل نعيم الدّنيا في الآخرة، وعذاب الآخرة أشدّ وأبقى من عذاب الحياة الدّنيا، ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[1].

ومن ثمّ فهو يرسم لليوم الآخر صورة تبعث في النّفس الرّهبة، ليدعو المرء إلى التّفكير السّليم في المصير.

والقصّة القرآنية حينما تعرض لنا مصائر المكذّبين للرّسالات السّماوية، وتصوّر لنا عذاب الله لهم بشتّى أنواعه، إنّما للتّأكيد على قدرة الخالق من جهة، وتكرار المواعظ والقوارع من جهة أخرى، دن أن تغفل العنصر الآخر في معادلة الكفر والإيمان، وهو ما تعرّض له الأنبياء من استكبار وترهيب من قبل أقوامهم.

وقد ذكر لنا القرآن الكريم في قصّة موسى عليه السّلام كيف "استخدم فرعون ذلك التّرهيب المادي المحسوس مع بني إسرائيل لفرض ربوبيته عليهم، عندما قتل الأولاد وسبي النّساء واستعبد الرّجال، وعندما أمر بتصليب السّحرة أمام النّاس وتقطيع أياديهم

---

[1]- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية(185).

وأرجلهم من خلاف، ليردع النّاس ويخيفهم ويزرع الرّهبة في قلوبهم إذا هم عصوا أمره"[1].

ولمّا كانت كثيرة هي النّفوس الّتي تخضع بالرّهبة دون الرّغبة، وصف القرآن الله بالعزّة والإنتقام وشدّة العذاب، وأنّه جلّت قدرته إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وفي ذلك يصوّر لنا الأسلوب القصصي حال من كفروا واستكبروا، فيحرّك فيهم غريزة الخوف، ويثير في نفوسهم الرّهبة. يقول المولى عزّ وجلّ:﴿ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[2]، فالأسلوب القرآني بتحوّله في إطار التّرهيب من التّقريرية على ضوء استخدام فرعون التّرهيب المادي ضدّ بني إسرائيل، إلى التّعبير المصوّر على ضوء الآية السّابقة، يرمي إلى ذلك التّناسق بين ما قرّرته القصّة وما ستكون عليه الحالات النّفسية الّتي تصاحبها، كإشارة إلى التّرهيب المعنوي، وكم كانت الصّورة بهذه الطّريقة التّعبيرية باعثة على النّفور عمّا نهى عنه القرآن الكريم.

وكثيرا كذلك ما يتلوّن أسلوب التّرهيب في القصّة القرآنية بتلوّن السّياق، إذ حيثما اختلفت طرق التّعبير عن المعنى الواحد، اختلفت صور هذا المعنى في نفس المتلّقي وذهنه، وذاك ما تهدف إليه القصّة في القرآن الكريم، حيث يخاطب الأسلوب الحسّ والوجدان فيصل إلى النّفس من منافذ شتّى أهمّها:

---

[1]- د/عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن، مؤسّسة الرّسالة، بيروت-لبنان، 1997، ط1، ص:316.

[2]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(166).

2- **الوعيد:**

وهو إسم من الوعد، يستعمل في الشّر خاصّة، يقال: أوعده بالشّر إيعادا، أي أخبره أنّه سينزل به شرّا، وقد فرّق بين فعل الخير وفعل الشّر من الوعد بالهمزة، فإنّ "أوعد" في الشّر لوجود الهمزة، وهو في الخير بدونها[1]. وإذا كان الوعيد يحمل معنى الإلزام بإنجازه، فإنّه يلتقي مع التّرهيب الّذي يكون غالبا للرّدع والتّخويف، لأنّ الكثرة من أفراد النّوع الإنساني تؤثر الضّلالة على الهدى وتسير بكلّ قوّتها إلى الغيّ والإعراض، لا تريد أن ينقذها الدّين الحقّ من واقعها المريض ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2].

لذلك أكدّ سبحانه وتعالى على حتمية اليوم الآخر الّذي من شأنه أن يجعل الإنسان يسارع إلى الفرار إلى الله من كلّ أحد آخر سواه، ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[3].

ولقد حفل القرآن بذكر ما يدلّل على أنّ الرّسالة الإلهية على مرّ الدّهور كانت رسالة إنذار شديد اللّهجة، أراد لها الله أن تبلغ

---

[1]- إسماعيل بن حمّاد الجوهري، الصّحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطّار، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط2، ص:551.

[2]- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية(106).

[3]- القرآن الكريم، سورة النّساء، الآية(136).

مسامع كلّ النّاس، لئلاّ يكون لهم حجّة يوم القيامة أنّهم لم يبلّغوا ولم يعرّفوا بهذا اليوم الرّهيب، فأرسل رسله بخطاب أخروي واضح جليّ لا غموض فيه، مبشّرين من آمن وعمل صالحا بجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، ومحذّرين من أعرض عن الله واتّبع هواه من يوم يرجع فيه إلى ربّه، فيحاسبه ويدخله نار جهنّم خالدا فيها أبدا، فكان الخطاب التّحذيري هو جوهر الرّسالة الإلهية التي تضمّنتها الكتب السّماوية، ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

غير أنّ بني البشر يؤثرون الحياة الدّنيا على الآخرة، ويعترضون على المخاطبين برسالة القرآن بمسوّغ كلّه خبال وباطل، ويتوهّمون أنّ ما جاء به القصص القرآني لهو أساطير الأوّلين.
فكان هذا الإصرار الإنساني شبه الجماعي، على الإبتعاد عن الله، يستوجب التّحدّي بالحجّة العقلية الدّامغة التي تؤكّد واقعية هذا القصص وصدقه وبيانه، وتنكر على المكذّبين افتراءهم.

[1]- القرآن الكريم، سورة النّجم، الآيات(36-42).

ومن هذا المنطلق لم يكن العرب كغيرهم من الأمم ليؤمنوا بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ويتّبعوا رسالته دون دليل قاطع، أو برهان صادق يدلّ على نبوّته وعلى صحّة رسالته، حتّى جاء القرآن الكريم عربيا فصيحا مفصّلا دقيقا يخاطب فطرتهم بلسانهم وباللّغة الّتي يألفونها، "فأنزله جلّ ثناؤه بالحروف الّتي يعرفونها وبالسّنن الّتي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم، ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر وأشهر"[1].

فكان﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾[2]، وقد سحرهم لما وجدوا فيه من روعة اللّفظ، وحسن المعنى، ودقّة النّظم، وتأثير في النفوس، وسريان في القلوب.

إذ كلّ ما في القرآن من مجاز واستعارة، وكناية وتشبيه وتمثيل، وتقديم وتأخير، وفصل ووصل-إلى آخر ما يرد في هذا المجال- في الشّعر العربي مثله. ومع ذلك "فإنّ القرآن يقف وحده على هذه القمّة المنقطعة، دون أن يستطيع الشّعر مع -ثبوت الشّبه البلاغي- أن يدنو إلى مواقع السّفح من قمّة إعجازه وخلوده"[3]، وقد ذكر الله تعالى خلابة ألسنة العرب، واستمالتهم للأسماع

---

[1]- إبن فارس، الصّاحبي في فقه اللّغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن يسبح، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1418هـ/1997م ط1، ص:150.

[2]- القرآن الكريم، سورة فصّلت، الآية(3).

[3]- محمّد أحمد العزب، الإعجاز القرآني من الوجهة التّاريخية، دار المعارف، القاهرة-مصر، ص:7.

بحسن منطقهم وفصاحة قولهم فقال:﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ ﴾[1].

ويصف الجاحظ الحالة اللّغوية للعرب وقت نزول القرآن فيقول: "والكلام كلامهم وهو سيّد عملهم، وقد فاض بيانهم وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوّتهم عليه عند أنفسهم، حتّى قالوا في الحيّات والعقارب والدّئاب والكلاب والخنافس والجعلان والحمير والحمام، وكلّ ما دبّ ودرج ولاح لعين، وخطر على قلب. ولهم بعد أصناف النّظم وضروب التّأليف، كالقصيد والرّجز والمزدوج والمجانس والأسجاع المنثورة"[2].

لقد سحر الأسلوب القرآني أرباب الفصاحة، وأخرس ألسنتهم، لتأنّقه في اختيار ألفاظه، ومراعاته الدّقة في دلالتها على المعنى، وقدرتها على التّعبير عنه. وها هو يصوّر حال المكذّبين من قوم إبراهيم عليه السّلام بعدما أقام الحجّة عليهم، على بطلان عبادة أصنامهم التي لا تضرّ ولا تنفع، بأنّهم لن يدركوا خلاصا من عذاب النّار يوم القيامة، يوم تتحوّل صداقتهم التي كانت للأصنام إلى ملاعنة ومباغضة، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة المنافقون، الآية(4).

[2]- الجاحظ، رسائل الجاحظ، من كتاب حجج النّبوة، نقلا عن كتاب بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبّار، عبد الفتّاح لاشين، دار الفكر العربي.

يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾[1]. وتكفي لفظة "مودّة" في الآية الكريمة أن تمدّنا بمعرفة الأسباب الّتي دفعت هؤلاء إلى الإعراض عن الله، وهي أنّ هذه الأصنام شكّلت أمامهم حجبا، لم يعودوا يروا غيرها، فأقاموا معها ألفة ومحبّة أنستهم محبّة الله، فأنساهم أنفسهم يوم القيامة.

واللّفظ في القرآن الكريم مستقلّ بصيغته الخاصّة، وبطبيعة صوته الّتي تشكّل بنيته، فهو مستقلّ إمّا في صداه المؤثّر، وإمّا بتكيّف المعنى بزيادة المبنى، وإمّا بزيادة التّوقّع، حيث يصكّ السّمع ويهيّء النّفس، ويضفي صيغة التّأثّر فزعا من شيء أو توجيها له أو طمعا فيه، تماشيا مع جوّ السّياق الّذي يسهم في الكشف عن المكنون الدّلالي للنّص.

وقد ينسحب ذلك-غالبا- على السّور المكّية لتأكيدها على أصول العقيدة الإسلامية، من الإيمان بالله وتوحيده، والتّصديق برسالة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، والبعث والنّشور، وما إلى ذلك من موضوعات مهمّة في بناء العقيدة الإسلامية.

فحين وصف المثل القرآني أحوال المنافقين وما هم عليه من المخاوف في ظلّ ما أحاط بهم من جوّ عاصف، جاء بلفظة(صيّب)[2] في قوله تعالى:﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية(25).

[2]- الصّيّب: المطر والسّحاب.

ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾[1]

بجرسها المناسب لتلك الأجواء المهولة، مشكّلا بذلك مشهدا عجيبا حافلا بالإضطراب والرّعب، نجم عن دلالة اللّفظ الّتي تعني الصّوب الموحي بشدّة الإنسكاب، وعن بنيته ممثّلة في يائه المشدّدة وبائه الشّديدة، فكان إيراد اللّفظ أكثر ملاءمة للمعنى المعبّر عنه، وهو الجوّ التّرهيبي.

ثمّ أنّ اللّفظ في القرآن الكريم له جرس صوتي يأتي بحسب الدّلالة المتوخّاة منه، ليرتبط دلاليا بتلك الآية الّتي ورد فيها، ويتعلّق بالنّاحية الجمالية لنوع الجرس المختار لهذه الآية دون سواه، ممّا يصير له أثر كبير في نفس المتلّقي على أساس تحسّسه لطبيعة الصّوت، وما يتركه من فعل بالغ في تصوّره وروحه معاً.

وهكذا اختار الأسلوب القرآني لكلّ حالة مرادة ألفاظها الخاصّة الّتي تعبّر بجرسها وإيقاعها عن المعنى، قبل أن يوحي مدلولها اللّغوي به. فلفظة (إدّاركوا) في قوله تعالى:﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ

[1]– القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(19).

قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]، قد وردت في سياق النّص لتعطي مفهوماً واضحا، وأدقّ في التّعبير عن حال الكافرين وهم يزجون في النّار، إذ عبّرت بجرسها عن معنى التّلاحق والإجتماع في النّار[2]، فالأصل في صيغة (ادَّارَكُوا) هو تداركوا، فأدغمت (التّاء) في (الدّال) بعد قلبها (دالاً) وتسكينها ثمّ المجيء بهمزة الوصل، فأحدث ذلك نغماً موسيقياً موحياً بالمعنى. ومن هنا كان الإدغام هو المرتكز الصّوتي الأساس الّذي أضفى على اللّفظة جرساً موسيقياً منحها صفة التّفرد، بالنّظر لما يحدثه من ثقل على اللّسان، يشعر بثقل ما يلاقيه الكافرون من عذاب.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيتان(37-38).

[2]- الفخر الرّازي، التّفسير الكبير، المرجع نفسه، ص:61.

ومثاله كلمة(يصطرخون) في قوله سبحانه:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾[1] [2].

ومن مقتضيات النّظم القرآني، وبراعة التّصوير البلاغي في القرآن، أن تتّضح قيمة اللّفظ في القرآن، ويظهر جماله من خلال ارتباط بعضه ببعض داخل الآية أو الجملة القرآنية، حيث تكشف التّراكيب اللّغوية ببنائها البديع عن أصالة ما يريد القرآن التّعبير عنه بصورة إيحائية، لا يحسّ بها السّامع في الإستعمال الحقيقي، وتمنح آياته جودة وبلاغة، وتكشف عن أسرار جمالية متناهية.
وقد نجانب الصّواب إذا قلنا بأنّ الإستعمال المجازي في أسلوب القرآن يكثر في مقام الإنذار بالعذاب والتّرهيب من مصير يوم قريب، إذ إسناد الفعل إلى غير فاعله الأصيل، يجعل ما أسند إليه الفعل هو الرّكن الّذي لا يتمّ العمل بدونه[3]. ولننظر إلى قوله

---

[1]- القرآن الكريم، سورة فاطر، الآيتان(36-37).

[2]- أنظر سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، المرجع نفسه، ص:91-92.

[3]- أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، مكتبة النّهضة، القاهرة-مصر،2007، ط3، ص:171.

تعالى:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ ﴾[1]، فيبدو لنا وصف اليوم بأليم، لبيان عظم ما يقع فيه، ومع إنزال الظّرف منزلة الفاعل نفسه[2]، إشارة إلى كثرة وقوع الفعل فيه، ووصف له بالإحاطة وهي حال العذاب. والحقيقة أنّ في هذا الإسناد دلالة على انسحاب الوصف/العذاب/ على هذا اليوم الّذي يشيب له الولدان، ممّا "يساعد على هزّ النّفوس، وإثارة مشاعر الهلع والفزع فيها، فيساعد ذلك على مراجعة نفسها وإعمال عقلها فيما يدعوها إليه علّها ترعوي عن غيّها"[3].

وإذا أمكننا القول بأنّ الخطاب القرآني جاء ردّا على خطابات تعتمد عقائد ومناهج فاسدة، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾[4]، يطرح أمرا أساسيا يتمثّل في عقيدة التّوحيد، فيقدّم لها الحجج المدعّمة بمختلف الوسائل، ومن خلال الصّيغ اللّغوية والتّعابير الفخمة، وما لازم ذلك من أغراض الوعيد

---

[1]- القرآن الكريم، سورة نوح، الآية(1).

[2]- أبو الفضل بهاء الدّين السّيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار الفكر، المجلّد6، ج12، ص:36.

[3]- عبد الصّمد عبد الله محمّد، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، المرجع نفسه، ص:267.

[4]- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(2).

والتّهديد من خلال التّرهيب من عذاب يوم قريب. لذلك كان حرص الأنبياء شديدا على ما ينفع أقوامهم، كما كان خوفهم عليهم من عذاب الله شديدا أيضا.

ومن ثمّ اقتضى المقام في خطاب النّبي هود عليه السّلام لقومه في سورة الأعراف المتضمّنة جملة من المقاصد، كتوحيد الله في العبادة والتّشريع، وكذا تقرير الوحي وتقرير البعث والجزاء، أن يقابل إنكار قومه لدعوته بالغضب والتّهديد، ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[1]، معقّبا على دعوته بجملة إنشائية، بنيت على استفهام فيه معاتبة وتخويف لقومه، مخبرا إيّاهم بصيغة الفعل الماضي المفيد لتحقيق الوقوع، بأنّه ثبت وحقّ عليهم عذاب الله وعقابه(الرّجس والغضب)، "وقد فسّر البعض الرّجس بالسّخط، وفسّر الغضب بالعذاب، وعندئذ يكون المجاز واقعا في الغضب بعلاقة السّببية، لأنّ العذاب أثر للغضب"[2]، وفي ذلك إشعار بفداحة الجرم، وبفظاعة العذاب.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية(71).

[2]- محمّد الطّاهر بن عاشور، المرجع نفسه، ج8، ص:210.

وقد كان قرب قوم عاد من عهد نوح الّذين استؤصلوا بعذاب الغرق جزاء كفرهم، مقاما أنسب لهذا الأسلوب لقرع آذانهم وتنبيه عقولهم. إذ أنّ اغترارهم بقوّتهم وتمسّكهم بموقف العناد والمكابرة، جعل المرسل/النّبي/ جادّا في وعيده، حيث اكتسى خطابه الشّدّة والمصارحة لما هم عليه من الشّرك والإصرار على الكفر، "فجعل ما هو متوقّع كالواقع، تنبيها على تحقّق وقوعه"[1].

فدعوة هود–من خلال الآية– خالية من المطامع، لا تسير إلاّ في ظلّ التزاماته الدّينية. ووظيفته الرّسالية أن يبلّغ قومه رسالة ربّه ويوجّه أفكارهم إلى الإيمان. لكن قوم عاد وتشدّدهم جعل أسلوبهم في المعارضة عنيفا، ممّا اقتضى أن يكون في موقف القوّة والتّحدّي أيضا، مستمدّا قوّته من قوّة الله، في أسلوب مشوب بالإنكار والتّرهيب "أتجادلونني"، "فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين" كإشارة إلى تخويفهم من مثل ما حدث لأمم سبقتهم.

وحيثما قصدت القصّة إلى التّأثير في وجدان المتلّقي بمثل هذه الأساليب الإنكارية، أخذت أيضا تنوّع في أدوات التّعبير، وتستعرض المشاهد المروّعة بطريقة التّجسيم والتّمثيل.

وهي طريقة يؤتى بها للإقناع بمصوّغ التّشبيه، الّذي تقدّر نفاسته بقدرته على التّصوير والتّأثير انطلاقا من عقد الصّلة بين أمرين من حيث وقعهما النّفسي. والتّشبيه يستمدّ عناصره من الطّبيعة الموسومة بالبقاء والخلود، ممّا يوحي بخلود القصّة، وبقائها الأداة الفاعلة في القرآن الكريم، وقدرتها على تبليغ مقاصده ومراميه. فيصوّر تلك المشاهد المبثوثة في الطّبيعة، ليلقي بظلالها على عقول ونفوس المشركين الضّالين، حتّى يتّعظ بها المخاطبون.

---

[1]– الشّوكاني، فتح القدير، المرجع نفسه، ص:308.

وفي ذلك يصوّر لنا الأسلوب القرآني حالة قوم عاد مشهدا شاخصا، حاضرا من خلال بثّ الحركة في عوالم الطّبيعة، فيجعل من صورة الفناء في الطّبيعة مشهدا حسّيا لضياع القوم الكافرين، ثمّ يقفز بالمتلقّي-بفنّية تصويرية رائعة- إلى أفق النّاظر للمشهد، المتفاعل معه بشتّى العواطف المنبعثة من الموقف.

فهو/أي التّشبيه/، يجد في أعجاز النّخل المنقعر المقتلع من مغرسه، صورة قريبة من صورة قوم عاد الصّرعى؛ قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم عن أماكنهم فألقوا على الأرض مصرّعين، قال:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ ﴾[1]، كما تبقى كلمتا "صرصر" و"تنزع" بعنف جرسهما، تحققان مدلولهما وبعدهما المعرفي، وهو بعث الفزع والرّهبة في نفوس المتلقّين.

وغير بعيد عن هذا المعنى، يزيد الأسلوب في سورتي الحاقة، الآية(6-8) والذّاريات، الآية(41-42)-على التّوالي- المشهد فزعا، ويمكّن لصورته في النّفس، ويوحي إليها بالرّهبة أيضا، قال تبارك وتعالى:﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا

[1]- القرآن الكريم، سورة القمر، الآيتان(19-20).

عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴾ [1]، وقال:﴿ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾ [2].

وكثيرا ما يتّسم الأسلوب القصصي بالفخامة والقوّة، يكتسبها من تخيّر اللّفظ وموسيقاه، ومن استخدام ألوان التّوكيد والتّكرير عندما يتطلّب الأمر التّخويف والتّرهيب، ممّا يزيد في النّفس النّفرة والتّقبيح وعدم القناعة والرّضا، وتلك صورة أخرى من صور هذا الأسلوب في القصّة القرآنية، وهي:

3- **التّهويل والتّعظيم:**

إنّ حديث القرآن الكريم عن قصص أقوام خلت مع أنبيائهم، وذكر مصائرهم، وتصويره لطريقة هلاكهم، يفهم منه توجيه الوعيد إلى المستكبرين من قريش الّذين تطاولوا على سماحة الرّسالة المحمّدية، وأنّ جدال المكذّبين للأنبياء، يلبس

---

[1]- القرآن الكريم، سورة الحاقة، الآيات(5-8).

[2]- القرآن الكريم، سورة الذّاريات، الآيتان(41-42).

لباس جدل المشركين من قريش للنّبي محمّد، عليه أزكى الصّلاة والتّسليم، قال تعالى:﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾[1].

أمّا أسلوب الخطاب فقد صيغ بطريقة تناسب الظّرف الّذي تجتازه الدّعوة المحمّدية وهو الحدّة والشّدة، ومن ثمّ كان التّقريع والتّرهيب هو الأسلوب الأنسب لردع هؤلاء وتعنّتهم، ووضع حدّ لكفرهم. ولا يخفى ما في قوله "كذّبت عاد المرسلين" من دلالة على التّعميم والإطلاق، إذ أنّ تكذيب قوم عاد لنبيّهم هود، هو بمثابة تكذيب لكلّ الرّسل، كون أنّ كلّ الأنبياء والرّسل جاؤوا بنفس الكلمة، ونادوا بنفس الدّعوة.

ثمّ أنّ عرض القرآن الكريم لما وقع للنّبي هود وغيره من الأنبياء مع أقوامهم عبر سور مختلفة، لإشارات تحدّد الإطار الّذي تتحرّك فيه القصّة من جهة، وتعمل على تسلية النّبي وأصحابه، وتأكيد انتصارهم وهلاك خصومهم من جهة أخرى. قال عزّ وجلّ:﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾

[1]- القرآن الكريم، سورة الشّعراء، الآيات(123-124) و(135).

وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[1].

تبقى إذا الأحداث الّتي ترويها القصّة القرآنية عن الأقوام الماضية، والتّذكير بما حصل للأنبياء السّابقين، وما عانوه من طرف أقوامهم، وصبرهم على الأذى حتّى تحقّق لهم النّصر؛ ترهيبا لخصوم الدّعوة المحمّدية، وحملهم على التّفكير في المصير المنتظر، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ تُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[2].

ولتحقيق هذا الغرض(التّرهيب)، إختار التّعبير القرآني من الكلمات ما ترسم صورة الموضوع بظلّها الّذي تلقيه في الخيال،

---

[1]- القرآن الكريم، سورة النّجم، الآيات(50-55).

[2]- القرآن الكريم، سورة الفجر، الآيات(6-14).

لا من قبيل الدّلالة المعنوية فحسب، ولكن من حيث ما تبعثه في النّفس من أثر. فلفظة "صبّ" بتشكّلها الصّوتي، توحي بدلالة الإفراغ بكثرة، وبالتّالي تساعد على إكمال معالم صورة العذاب الّذي يتلقّاه الكافرون، مضاف إليها الإيقاع الموسيقي للجملة القرآنية. فالآيات السّابقة قد انتهت بما يدلّ على الشّدة، وهو حرف الدّال المسبوقة بألف المدّ بإيقاعها الصّوتي المتعالي، الضّارب في أعماق الماضي، إيحاء بهلاك الأمم الّتي حادت عن الخطّ الرّسالي الّذي جاءت به الكتب السّماوية، ممّا حقّق التّناسق بين التّراكيب والغرض النّفسي الّذي يرمي إليه الخطاب، وهو التّخويف والتّرهيب.

4- إظهار الفارق بين المرغوب فيه والمرغوب عنه:

وإذا "كانت الأداة الّتي تصوّر المعنى الذّهني والحالة النّفسية، وتشخّص الأنموذج الإنساني أوالحادث المروي هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصوّر ولا شخوص تعبّر"[1]، فإنّ المنهج الفنّي للقصّة القرآنية يوفّر لهذه الألفاظ القدرة على حمل المتلقّي إلى فضاء المشهد القصصي، فتوحي إليه بالخيال الكثيف، سيما على مستوى التّقابل، حيث كثيرا ما يعتمد الأسلوب القصصي على الوسائل البلاغية المختلفة، لكي ينقل المشهد إلى المتلقّي ويهزّ وجدانه.

وبلاغة القرآن الكريم من خلال القصّة لا تقف عند حدّ من حدوده، بل تظهر في كلّ مكوّناته، "كذلك فيما احتواه من روحانية بحيث يخاطب الأرواح والعقول فيجذبها إليه جذبا، وتتفتّح له النّفوس والقلوب لما فيه من روعة ووقع جميل تقشعرّ له جلود المؤمنين، ثمّ تلين وتطمئنّ له قلوبهم باختلاف تدبّر

---

[1]- سيد قطب، التصوير الفنّي في القرآن، المرجع نفسه، ص:36-37.

معاني الآيات القرآنية من وعد ووعيد وتبشير وإنـذار وتـذكير وإيقاظ ومخاطبة للعقول وإثارة للمشاعر، فيؤنس النّفس ويطربها ويهزّ أعطافها، ويذهل العقل ويقرع الآذان عند تذكيره ببطش الله ونقمته"[1]. قـال تعـالى:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

وهنا تبرز إجادة الأسلوب القرآني في تصوير مشـاهد العـذاب الّذي سلّطه الله على قوم عاد نتيجة عنادهم وكفـرهم، تصـويرا يبعث على الرّهبة في النّفوس والخوف من سوء المصير؛ فذكر العذاب الدّنيوي وإلى جانبه الخزي فـي الآخـرة وقـد أحسـن استعمال ذلك، فأثرى الأغراض والدّلالات من خـلال طريقـة

---

[1]- د/قدّور إبراهيم عمّار المهاجي، مصادر السّيرة النّبوية، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران-الجزائر، 1430هـ/2009م، ط3، ص:26.

[2]- القرآن الكريم، سورة فصلت، الآيات(15-16).

النّظم الّتي اختارها، ليواجـــه المتلقّـــي بـــنفس الحقـــائق، وذات المصائر الّتي آل إليها المكذّبون من الأمم السّابقة.

الفصل الرّابع

الخصائص العامّة لعنصري التّرغيب والتّرهيب في سورة هود

تمهيد:

لقد أثار القرآن الكريم في أساليبه الرّسالية أكثر من أسلوب، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، فيما يفكّر به في قضايا العقيدة والحياة، ليقتنع بالفكرة الحقّ، الّتي ترتبط بالله، وبالطّريق الّذي يصل به إليه في أجواء رائعة، تتحوّل فيها العقيدة إلى قضيّة تمتزج بالإحساس والشّعور، كما تنطلق فيه المشاعر الرّوحية في أجواء فكرية واسعة.

وكانت القصّة من بين الطّرق الّتي سلكها القرآن في هذا السّبيل، مشتملة على أسلوب تصويريّ معجز في وحدة فنّية رائعة، متضمّنة إيحاءات تتفتّح بها على قلوب المتلقّين في شتّى المواقف، حتّى وجد فيها كلّ قارئ ناحية يتأثّر بها ويستجيب لها. ومن هذه النّاحية حقّقت/القصّة/ إبلاغيتها على قاعدة التّأمّل فيما عرضته من وقائع وأخبار، ومن خلال الدّعوة إلى الله على ألسنة رسله وأنبيائه، مع اتّخاذ العبرة ممّا جرى لهم/المرسلين/، وما وقع للّذين أرسل إليهم هؤلاء.

لقد اتّجهت القصّة القرآنية-بطريقة تصويرية خصبة وتفنّن بلاغي- إلى حيث يكون المقصد، وذلك باعتماد أسلوب التّرغيب والتّرهيب، تماشيا مع الموقف الّذي يكون عليه المخاطب/الدّاعية/، والمخاطب/المتلقّي/ على حدّ السّواء، وسيرا مع الظّروف المحيطة بكلّ نبيّ، مع مراعاة طبيعة الدّوافع الّتي تحكم المخاطبين من حيث ارتباطها ببيئاتهم المتعدّدة وأزمنتهم المتعاقبة وعلاقاتهم المتشابكة، وصلة ذلك كلّه بنّوازعهم النّفسية.

المرامي الّتي انطوت عليها القصّة في سورة هود:

لقد تناولت القصّة القرآنية كلّ ما تحتاج إليه البشرية في حياتها الخاصّة والعامّة، الدّنيوية والأخروية، وما يربط بينها

من روابط، وما يشدّ أفرادها من علاقات إجتماعية واقتصـــادية وأخلاقية وفي جميع أبعادها. فكان ذلك هو الإتّجاه الّذي ســـلكته سورة النّبي هود عليه السّلام[1]، والمنهج الّذي اتّبعته قصد إثـــارة الجوانب الّتي تخدم موضوع الرّسالة، وتعميقه في النّفوس.

وقد جاءت سورة هود واحدة من السّور المتفـــرّدة والمتميّـــزة، لارتباطها باسم النّبي هود–من جهة– تخليدا لجهوده الكريمة في الدّعوة إلى الله، واشتمالها على سبع نماذج من الرّسل الكـــرام، وصبرهم على ما لاقوه من أقوامهم، ولاتّصالها بـــذلك الجانـــب المهمّ من السّيرة المحمّدية–من جهة أخرى–، المتمثّل في تلـــك الفترة العصيبة من حياة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وما لاقاه وإخوانه المسلمين من أذى قريش بسبب فقدانه للسّند(وفاة خديجة وعمّه أبو طالب) الّذي كان يردّ به أذى قومه، ويشدّ به أزره في مواصلة نشر الرّسالة، حتّى أنّه– صلّى الله عليه وسلّم– قال:(ما نالت قريش منّي شيئا أكرهه حتّى مات أبو طالب)[2].

وسورة هود تباعا من السّور المكّية الّتي ارتبطت في موضوعها بأصول العقيدة الإسلامية وحركتها عبر التّـــاريخ، مـــن خـــلال عرضها لجوانب من حياة بعض الرّسل، ثمّ التّعقيب علـــى هـــذه الحركة ببيان عاقبة المتّقين ومصير المكذّبين.

---

[1]– "وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السّلام. ويقال: إنّ هودا هو عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السّلام" ذكره إبن جرير(تاريخ الطّبري 216/1). وكان من قبيلة يقال لهم: عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف–وهي جبال الرّمل– وكانت باليمن بين عمّان وحضرموت، بأرض مطلّة على البحر يقال لها: الشّحر، وإسم واديهم: مغيث. وهم عاد الأول، عاد إرم ذات العماد، كم ذكرتهم الآية(50) من سورة الفجر. أنظر، إبن كثير، قصص الأنبياء، دار صادر، بيروت–لبنان، 1422هـــ/2002م، ط1، ص:72.

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، م4، ص:1840.

كما تضمّنت وحدة العقيدة ووحدة موقف الرّسل في خطّهم الرّسالي، وفي مواجهتهم لمختلف الجاهليات على مدار الزّمان والمكان، وكذا وحدة الكلمة المحكية عنهم والتقائها-في كلّ ذلك- مع موقف النّبي محمّد صلوات الله عليه إزاء تعنّت المشركين من قومه، فتمحورت على فكرة رئيسية هي الإستمرار في الإصلاح دون تهوّر أو ركون.

وفي سبيل ذلك-من ناحية- وتثبيت العقيدة في النّفوس- من ناحية أخرى-، إحتوى سياقها على شتّى الطّرائق المؤثّرة، كالإجمال والتّفصيل والعرض والتّصوير والتّرغيب والتّرهيب وغيرها.

ومن اللّفتات العظيمة الّتي توردها سورة هود عليه السّلام، وهي تعرض تلك الصّور الكريمة من قصص الأنبياء، أنّ هؤلاء الأنبياء لم يملّوا دعوة الحقّ، فانبروا يدافعون عنها بكلّ ما أوتوا من أساليب، وأنّهم ارتفعوا فوق الإبتلاء والمعاناة، واستثاروا مكامن القوّة والضّعف في نفوس مخاطبيهم، فقوّموها انطلاقا من ترغيبها في خير الدّنيا والآخرة.

وفي الواقع أنّ الطّريقة التّربوية الوحيدة الممكّنة لهؤلاء الأنبياء في دعواتهم لأقوامهم، والمنهج الموضوعي الّذي أدّى دوره حيال طبيعة المتلقّي في خطابهم هو؛ أن ينطلق الدّاعية من موقف الرّسالة الّذي يرمي إلى صياغة إنسان جديد في روح عصر جديد، بطريقة ليّنة منطلقها الإيمان والمحبّة، والإقناع بالفكر بعيدا عن الإنفعال والقسر.

لكن لمّا ساد البيئة الّتي نزل فيها القرآن المكّي-وسورة هود خصوصا- الفساد والتّشنّج، إقتضت الضّرورة الإلهية أن يأتي القصص دروسا في الصّبر على الأذى، والإخلاص في تبليغ

الرّسالة من منطلق الحال الّتي عليها نفوس وعقــول المعنيــين بالخطاب.
فسورة هود–موضوع هذا الفصل من البحث–، نجد الهدف مــن الخطاب فيها واحدا، غير أنّ طبيعته تتعدّد وتتنوّع بتعدّد وتنــوّع المواقف الّتي كان عليها المخاطبون، إذ هو خطاب فــي واقــع النّاس وإليهم، شقّ منافذ إلى نفوسهم، يستجلي صوّرها وأشكالها، ويلقي إليها بلطائف النّعيم ليستميلها فتنقاد له.
إنّها الحقيقة الثّابتة والمكرّرة في خطاب الأنبياء لأقوامهم، تحمل البشرى والأجر الكبير لمن آمن وصبر وعمل صالحا.
ولا نحسب أنّ النّفوس المستكبرة والعقول المتحجّرة الّتي جانبها الرّفض والإنكار ستسير وراء هذه الدّعوات، لذلك أصرّ التّعبير القرآني في سورة هود، ومن خلال القسم الّذي تنــاول قصــص الأنبياء، على تفصيل تلك النّعم وتوسيع مجال الحديث عنها، لكي يدفع عقول المخاطبين إلى التّأمّل والتّدبّر، ولكي يوصــل عقــل الإنسان–على اختلاف زمانه ومكانه– بتيّار التّوحيد.
فخطاب هذا شأنه وتلك صفاته، جدير بأن يتّبع وبأن يتدبّر وينصت إليه. سيما وأنّه من كتاب "أحكمت آياته بالأمر والنّهي، ثمّ فصّلت بالوعد والوعيد والثّواب والعقاب"[1].﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ

[1]– أنظر القرطبي، المرجع نفسه، ص:3.

ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾[1].

خطاب يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه، فتذهل منه النّفوس وتشيب منه الرّؤوس، حتّى أنّ الصّحابة رضوان الله عليهم قالوا للنّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم: يا رسول الله نراك قد شبت، فقال: "شيّبتني هود وأخواتها"[2].

ذلك هو الخطاب القرآني المنزّل بلسان عربي مبين، والمشكّل من نفس حروف النّظام اللّغوي المألوف(ألر)، يتحدّى العرب بتأليفه، ويؤسّس للمنطق الأوّل في الرّسالة، وهو الإقرار بالعبادة لله، وتصديق الرّسول المبلّغ عنه، ووجوب الإقلاع عن الشّرك والمعصية والعودة إليه سبحانه وتعالى. أو كما تحدّثت الآيات الكريمات-بالمفهوم العام- عن قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والتّكوين والإنشاء وتكريم بني آدم وتفضيلهم، والتّرهيب من اتّخاذ الشّيطان وليّا من دون الله، والتّركيز على قيمة الإنسان في علاقته مع ربّه.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(1-4).

[2]- صحيح/أخرجه التّرمذي في الشّمائل(ص:40/ مختصر) وذكره إبن حجر في "المطالب" (342/3) وصحّحه الألباني في الصّحيحة (955). أنظر الشّوكاني، المرجع نفسه، ص:670.

ولعلّ قوام الإقرار بهذه الحقائق والعمل بها، هو التّرغيب في الجزاء "يمتّعكم متاعا حسنا". وهكذا بنمطية خطابية تحمل بعدا تأكيديا، يذكر الخطاب القرآني ما يناسب الجزاء والعمل الصّالح. كما يجول السّياق في نفسية المتلقّي فيكشف عن نوازع اليأس والكفر بنعم الله، متّخذا من ذلك المنحى التّصويري قاعدة للتّبشير بالخلاص والثّواب، متى كانت صفة الصّبر هي ما انطوت عليها هذه النّفس الإنسانية إن في حالة السّراء أو الضّراء، وأنّ العمل الصّالح كصورة من صور الإيمان الجاد، هوّ ما يقيّم القلوب البشرية على سواء في البأساء والنّعماء. ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [1].

والجزاء(المغفرة والأجر) كما أوردته الآية الكريمة، قصره السّياق التّعبيري على الصّبر والعمل الصّالح بنيّة تحبيبهما والتّرغيب فيهما، وهما صفتان انطبعت بهما شخصية النّبي، ولطالما اشرأبّت لها النّفوس الطّيبة، وتقبّلتها القلوب الصّافية، واستصاغتها العقول الخالصة.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(9-11).

ويمضي السّرد القصصي في سورة هود بنمطيّة إخبارية تستعرض تعصّب المشركين للنّبي وافتراءهم عليه، وتكذيبهم لرسالته في فترة اشتدّت عليه فيها المحن، وتأخّر عنه فيها نزول الوحي، وضاقت الدّنيا بما رحبت بالقلّة المؤيّدة له من المسلمين. كما يقرّر في سياق تذكيري تضافر الأدلّة والشّواهد على صدق الرّسالات وصدق ما يتنزّل عليه، حين تحدّاهم على أن يأتوا بعشر سور مثله[1]. ومقابل ذلك يعرض موقف الّذين آمنوا بهذا القرآن مبشّرا إيّاهم بالفوز العظيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

فالخطاب هنا يسند صفة الإستقرار وهدوء النّفس للنّبي، ومن خلاله أولئك الّذين آمنوا وعملوا صالحا، بقرائن لغوية دلالتها الثّبات، هي الأداة "إنّ" والأفعال الماضية "آمنوا"، "عملوا"، "أخبتوا"، والتّأكيد على الفاعلين(المؤمنون) في ساحة الإيمان،

---

[1]- قال تعالى:(أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) هود، الآية(13).

[2]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(23-24).

بأسلوب الإشارة "أولئك" والضّمير "هم". وبالصّورة المجسّمة "البصير والسّميع" يخلع التّعبير القرآني الحياة على تلك المعاني المجرّدة، ويبرزها أجساما تتبدّى للمتلقّي شخوصا فيأنس بها، وبذلك يحقّق الخطاب إبلاغيته، طالما أنّ خاصّيّة التّجسيم به تنقل القضايا الّتي تحتاج لجدل فكري إلى بديهيات مقرّرة، لا تحتاج إلى أكثر من التّذكير وتوجيه النّظر.

وبعد أن تبدأ سورة هود بتمجيد القرآن العظيم الّذي أحكمت آياته، وتقرير الحقائق الكبرى للعقيدة، وعرض عناصرها عن طريق الحجج العقلية مع الموازنة بين فريقي الضّلال والهدى، والتّفريق بينهما من خلال التّذكير بحسن عاقبة المتّقين وسوء عاقبة المكذّبين، تنتقل الآيات مستعرضة حركة العقيدة في مواجهة الجاهليات على مدار الأزمنة، من خلال جولات مع الماضين من الرّسل، مبتدئة بقصّة نوح ثمّ هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، مع إشارة إلى موسى صلوات الله عليهم جميعا، مركّزة على ذلك العنصر الأساس، والجانب المضيئ في بناء الرّسالة وهو تثبيت فكرة التّوحيد، تحقيقا لذلك الإرتباط العميق بين القصّة القرآنية وقضايا العقيدة، على ضوء الدّعوة المتكرّرة إلى الله من قبل هؤلاء الأنبياء، وإرشادهم النّاس إلى الحقّ.

سماحة النّبي في مواجهة الكفر:

ولعلّ ما يشدّ العقل والوجدان في هذه القصص الّتي تناولتها السّورة، أنّها تؤسّس لمفهوم الإستقامة وفق ما أمر به الله، وكلّف به الأصفياء من عباده، وأنّ التّعبير القرآني فيها يؤلّف بين الغرض الدّيني والغرض الفنّي فيما يعرضه من الصّور والمشاهد، بشكل تبدو فيه الدّعوة مكرّرة بذات المعاني

وذات الكلمة، وبصورة أخذت فيها القصّة حيويّتها بفعل الحوار الّذي يطبع موقف كلّ نبي مع قومه.
ومن ثمّ نلمس في خطاب النّبي نوح عليه السّلام لقومه، وهو أوّل ما تعرّضت له السّورة في هذا القصص، روح الرّسالة المنفتحة على الحقيقة بكلّ سعتها، تعرض نفسها على النّبي، فيتحرّك في كلّ الإتّجاهات الدّعوية، مقدّما إلى قومه كلّ الفرص المتاحة للرّجوع بالتّوبة إلى الله، وملجما إيّاهم الحجّة القويّة، يسديها لهم في معرض التّذكير بقوّة الخالق، وقدرته على خلقهم وتدبير أمورهم.
فكانت تلك هي الحقيقة الكبرى الّتي تبدأ منها العقيدة الصّحيحة، وتتأسّس عليها الدّعوة. قال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي

رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا
كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟
رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن
يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ
أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ
إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ
ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾

وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

وهكذا يقتضي الخطاب في قصّة نوح، المرتبط في أساسه بقضيّة العقيدة، التركيز على العنصر الأساس في الرّسالة، وهو التّصديق بالنّبوة(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنّي لكم نذير مبين)، بنمطيّة تقريرية استوعبت حقيقة العقيدة وثباتها، تحدّدت دلالتها بإسناد التّعبير القرآني إلى ما يفيد التّأكيد بالأداة "قد" و "إنّي" وأسلوب القصر "لكم نذير مبين"، وهو أقوى في تحديد هدف الرّسالة وإبرازه في وجدان المتلقّي.

وإذا كانت طريقة العرض هذه أقرب ما تكون إلى أسلوب التّلقين الّذي يراد منه إعطاء معرفة تّفصيلية للموقف، فإنّنا نجد الحوار في هذا المشهد من القصّة قد أخذ مساحة أوفر؛ لأنّ قيمته في محاولة تبسيط الفكرة في جميع مجالاتها، وفي تجسيد الموقف وتحريك الحدث، وإدماج المتلقّي في جوّ الصّراع، ولأنّ فاعليته في إعطاء المشهد حياة وحركة.

على أنّ الغرض الدّيني في هذا المشهد موصول بذلك الموقف الّذي وقفه النّبي نوح أمام قومه، ناصحا ومرشدا وموّجها، وداعيا

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(25-35).

إلى رسالة ربّه في سماحة ومودّة، أجلاها تكـــرار الفعـــل قـــال بصيّغه الصّرفية المتنوّعة (قال، أقول، قالوا، يقولون...)، ولفظة "قوم" المفعمة بوشائج القربى والمحبّة، ممّا يعطي انطباعا علـــى أسلوب النّبي في استمالة قومه، والتّأثير فيهم بروح لطيفة بعيـــدة عن كلّ مظاهر الزّيف والإستكبار، وبصفة لم تكن ذاتـــه تمثّـــل شيئا بالنّسبة إليه إلاّ بمقدار ارتباطها برسالته. ولذا تضافرت في خطابه جملة من الأساليب المتنوّعة، يديرها مع قومه قصد إثارة جوانب الرّحمة الإلهية الواسعة من حيث علاقـــة ذلـــك بنتـــائج أعمالهم، مع التّركيز على القواعد العامّة لقضيّة الثّواب والعقاب، فيكون ذلك كلّه حافزا على تصحيح أفكارهم من جهة، والإرتباط بالله من جهة أخرى.

ولإبراز فائدة الكلام/خطاب نوح/ وتمكينه من نفوس المتلقّـــين، إختار من بين أدوات النّداء ما هو أكثر استعمالا، وتقديم النّـــداء على الطّلب(يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي)، (يا قوم لا أسألكم عليه مالا)، (يا قوم من ينصرني مـــن الله) جريـــا علـــى مقتضى اللاّزم فيمن كان معنيّا بالخطاب، وفي الوقت ذاته يحثّهم على الإقتناع بالنّظر والتّدبّر فيما يدعوهم إليه من أمور العقيـــدة عملا بمبدأ الإختيار، منتقيا من الألفاظ ما يبرز دور الصّوت في إبراز هذا المعنى. وفي ذلك تستوقفنا تلك الإلتفاتة من قبل ســـيد قطب–رحمه الله– عند لفظة "أنلزمكموها" من قوله تعالى:(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني رحمة مـــن عنـــده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)، "فالكلمة تصوّر جوّ الإكراه بإدماج كلّ هذه الضّمائر في النّطق، وشدّ بعضـــها إلـــى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدّون إليه وهم منه

نافرون"[1]، مضافا إليها حرف النّون(الفاصلة) في آيات هذا المشهد، من حيث أنّه يمثّل إلى جانب حروف أخرى "مظهرا من مظاهر الصّوت الموجودة في اللّغة، وهي ظاهرة الإنفتاح"[2]، ملخّصا بذلك موقف النّبي الّذي يستوجب الإنفتاح على الحقيقة، والتّلطّف مع قومه، ومقارعتهم بالفكرة والحجّة لا بالقوّة والإستعلاء، تحقيقا لما يدعوهم إليه، واستمالتهم لما يرغّبهم فيه(حسن العاقبة).

أما وقد كان الجوّ الّذي وضع فيه قوم نوح الرّسالة، وهو البعد الإجتماعي، ومركز الغنى والثّراء الّذي تبوّأوه، ممّا حال دون إدراكهم كنه الحقيقة واستعدادهم للتلقي من نبيّهم، وتلك حال المشركين من قوم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وحال المنكرين في كلّ زمان ومكان، وأنّ قوام الرّسالة هو أن يردّ النّبي النّاس إلى عبادة الله وحده، فإنّ النّبي نوح عليه السّلام واجه قومه بلهجة الغضب والتّحذير، فبدأهم بالتّرهيب بعدما عجز معهم أسلوب اللّطف والملاينة، فجاءت دعوته لتؤصّل لمبادئ العقيدة الّتي تناولها المقطع الأوّل من السّورة، ولتجلي لنا قمّة التّصوير الفنّي باللّفظ من حيث دلالته على هذه المعاني في النّفوس والأذهان. ولذلك اختارت القصّة طريقة التّعبير الّتي تتّصل بالحسّ والوجدان، حيث تشترك حاسّة الذّهن مع حاسّة النّظر، فتتّسع مساحة التّلقّي عند المخاطب، من حيث أنّها تنقل له تلك المواقف، وتصوّر له الأحداث الماضية في صورتها الحاضرة المفعمة بالحركة.

---

[1]- سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، المرجع نفسه، ص:92.

[2]- جلال الدّين السّيوطي، إعجاز القرآن، المرجع نفسه، ص:66.

وهنا نرى الأسلوب القرآني قد أحيى مشهد الإنذار من خلال حذف الفعل "قال"، ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ ﴾، وطيّ ندائه القوم المشعر بالإستمالة والإستعطاف، كما جاء في وصف اليوم "بأليم"، "إيحاء بالتّهويل والتّفظيع، وبيان لمدى إحساس المعذّب به، فإذا كان اليوم مؤلما، فما الضّنّ بما فيه من العذاب"[1]، إذ أنّ حصول العذاب أمر مهمّ لكمال الإيمان بالله والعودة إليه.

ويتجاوز الأسلوب في دعوة نوح، التّعبير الذّهني والمعنى المجرّد، إلى الإنتقال من الحسّ إلى أعماق النّفس، من خلال عرض مشهد الطّوفان في صورة تلقي بظلال الخوف والرّهبة على قلوب المخاطبين من قومه، قال تعالى:﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ

[1]– الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، المصدر نفسه، ص:264.

ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

إنّ التّعبير القرآني –هنا– حين يشبّه الموج بالجبال، يرمي إلى رسم الصّورة كما تحسّ بها النّفس، ولا نحسب أنّ النّفس تستشعر معنى آخر غير الشّعور بالرّهبة والجلال. "وإنّ الهول هنا ليقاس بمداه في النّفس الحيّة–بين الوالد والمولود–كما يقاس بمداه في الطّبيعة، والموج يطغى على الذّرى بعد الوديان، وإنّهما لمتكافئان في الطّبيعة الصّامتة وفي نفس الإنسان. وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن"[2].

ثمّ إنّ ما يحقّق إبلاغية التّرهيب في الآية، الدّلالة الفنّية للتّشبيه، فهو يستمدّ عناصره من الطّبيعة، ويختار من الألفاظ ما يوحي بالفخامة والجلال، "ليعطي الخطاب القرآني شمولية ويكسبه خلودا"[3]، بل ليؤكّد قوّة التّأثير في العاطفة، ويصوّر وقع الدّعوة على القلوب من جهة أخرى.

وممّا يؤكّد ارتباط القصّة القرآنية في بعض أغراضها، بتصديق النّبوة وبتثبيت صحّة الوحي، وفي تنوّع فاعلية التّبليغ فيها، هو تلك النّقلة في السّياق التّعبيري من خلال هذا المشهد، من الأسلوب الإخباري إلى الطّلبي، كتعقيب على حركة العقيدة ﴿

---

[1]– القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(42-43).

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، ص:1878.

[3]– د/أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2007، ط3، ص:145.

تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ [1].

وهو آخر ما أسدل به السّتار في ذلك الحوار بين النّبي نوح وقومه، بعد أن طرق كلّ السّبل لهدايتهم فرفضوا، ليتقرّر مصيرهم وينتهي أمرهم بإهلاكهم بالطّوفان، ونجاة نوح ومن معه من المؤمنين، وتتحقّق هكذا البشرى(إنّ العاقبة للمتّقين).

التّحدّي والإصرار على التّبليغ:

إذا كان القرآن الكريم عموما رسالة غير مفارقة لقوانين الواقع، بكلّ ما ينتظم في هذا الواقع من أبنية، وكان المخاطبون/النّاس/ هم هدف هذه الرّسالة وغايتها، فإنّ مهمّتهم/المخاطبون/ هي محاولة الوصول إلى المتكلّم/الله/ من خلال القرآن ذاته، وأنّ صورة الإتّصال هذه بين الله والإنسان، إنّما تتمّ عن طريق الرّسل. ومن هذا المنطلق جاءت رسالة النّبي هود عليه السّلام على نفس الخطّ الّذي جاءت به دعوة نوح من قبل، لتعيد صياغة واقع سيطر عليه الظّلم والفساد، وترتقي بالإنسان إلى أفق الأخلاق السّامية، والصّفات الإنسانية.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(49).

لكن من أين لهود الوسيلة الّتي تمكّنه من تحقيق أهدافه؟ وتحوّل قومه الّذين بعثه الله فيهم إلى درجة من الصّقاء يتجاوزون به واقعهم الفاسد، وقد واجهوه بتعنّت واستكبار فقالوا:﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[1]. تجيبنا القصّة بأنّ النّبي هود هنا هو إنسان مجتمعه، وواحد من أفراد قومه عاد، الّذي تربطه بهم أواصر الأخوّة، والّذي يصدق عليه وصف السّيدة خديجة-رضي الله عنها- للنّبي محمّد صلوات الله عليه "إنّك لتصل الرّحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضّيف، وتعين على نوائب الحق"[2]، قد أسندت إليه مهمّة التّبليغ؛ وهي مهمّة شاقّة، تستلزم الصّبر والثّبات، والإستعداد لتغيير واقع قائم، وبناء مجتمع جديد مجتمع على كلمة واحدة، هي "لا إله إلاّ الله".

كما تضمّنت القصّة حوار هذا النّبي مع قومه، وصياغته بصورة تجعل من حاله مع قومه عاد، هي نفسها حال النّبي محمّد مع قومه قريش، يخاطبهم بنفس الكلمة الّتي قالها نوح لقومه:﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ

---

[1]- القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية(15).

[2]- مسلم، الصّحيح، المرجع نفسه، ص:25.

إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1]، يدعوهم دعوة خالصة وينصحهم نصيحة ليس وراءها هدف سوى ابتغاء أجره من الله، غير أنّ موقف عاد المستقبح من أخيهم هود وافتراءهم على الله، والّذي يكاد يشبه موقف قوم نوح في استكبارهم وتصدّيهم لدعوة نبيّهم، يجعل خطاب الأنبياء يكاد يتشابه أيضا، ممّا يوحي بالخطّ الرّسالي الموحّد الّذي سارت عليه الدّعوات.

والحقيقة أنّ هذا التّقارب في الخطاب لا يخصّ المعنى فحسب، من حيث أنّه يبرز طبيعة هذا الدّين القائم على مبدأ التّفرد في العبودية لله والدّينونة له، بل تجاوزه إلى الأداة الفنّية في التّعبير؛ فهو من ناحية يختار من الألفاظ ما يحقّق به غاية التّأثير ولفت انتباه المخاطبين، ومن الجمل والعبارات ما يحرّك به خيالهم ويتيح حسن المتابعة، إذ في ندائه القوم إيحاء بالمودّة، وتذكير بأواصر القرابة، وفي ذلك ما يستثير مشاعرهم ويدفع إلى استمالتهم. كذلك يحقّق الخطاب إبلاغيته من خلال تقديم المسند/الجار والمجرور/ "لكم" على المسند إليه "من إله" قصد التّوكيد على نفي الشّركاء لله، وتقوية ذلك المعنى بدلالة أسلوب القصر بالنّفي والإستثناء(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فالكلام تبعا لذلك، مطابق لمقتضى حال المخاطبين؛ إذ التّقديم غالبا ما يكون في مقام المحاجّة بين النّبي وقومه.

ولمّا كان النّبي في موقف الدّعوة عن طريق التّرغيب الّذي يقتضي التّلطّف واللّين، إتّخذ الأسلوب شكلا بيانيا تصويريّا، وتعاقبت الأوامر فيه على وجه الإلتماس؛ فتعلّقت بالتّوحيد أوّلا

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(50-51).

ثمّ الإستغفار فالتّوبة، قال تعالى:﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

ففي تصوير السّماء نفسها مطرا كثير الدّر، من باب المجاز المرسل بعلاقته المحلّية، مبالغة في إثارة عواطف الرّغبة فيهم، ووعدهم بنزول المطر النّافع بعد أن حبس عنهم زمنا طويلا.

لكنّ هذا اللّطف والإستمالة والتّرغيب من هود عليه السّلام، صادف عنادا وتعنّتا في قومه، وتصلّبا في موقفهم، فردّ على افتراءاتهم بأسلوب مندفع في جمل قصيرة مثيرة للإنفعال السّريع العنيف، فيه من الشّدة ما يصوّر حدّة انحرافهم وقوّة تحدّيه لهم، فألزمهم الحجّة بأنّ آلهتهم على ضعفها وعجزها لا تضرّ ولا تنفع، قائلا بما يثير فيهم قوى التّفكير، ويحرّك عقولهم نحو قدرة الخالق. ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(52).

تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

ثمّ يلجأ-بعدما توقف الحوار- إلى التّهديد والتّخويف بصيغة الأمر إبطالا لافتراءاتهم(فكيدوني جميعا ثمّ لا تنظرون)، معلنا شدّة توكّله على ربّه، وبما يناسب موقف التّحدّي الّذي فيه من التّصوير الحسّي ما يوحي بقوّة الله القاهرة. وقد تأكّد هذا المعنى عن طريق القصر بالنّفي والإستثناء(ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها)، فالمستكبرون من قوم عاد دواب لا يليق الإحتفاء بها. ثمّ بصيغة دالّة على التّجدّد والحدوث(ويستخلف ربّي قوما غيركم ولا تضرّونه شيئا) يتوعّد النّبي قومه بعدما أيأسوه من إيمانهم وانتصروا لآلهتهم، فاستنصر ربّه فاستجاب له وأهلكهم بالصّيحة.

الدّعوة إلى شكر النّعم ومحاربة الفساد:

ولأنّ حياة البشر لا تصلح، ولا يستقيم منهجها إلاّ بتلك العلاقة بين قيم الإيمان والقيم الواقعية في حياة البشر، ولمّا صار للبشر إمكانية رؤية آثار القيم الإيمانية في الكون وفي أنفسهم، فإنّ النّبي صالح لم يتوان في تذكير قومه ثمود بنعم الله عليهم، حيث لامس بخطابه أبعادا عميقة في نفوسهم، كاشفا لهم عن حقائق ثابتة فيها. قال تعالى:﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(54-57).

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾[1].

وقد كان النّبي صالح مرجوّا في قومه ثمود بعدما غاب قوم هود في التّاريخ، وعادت الجاهلية تمارس نشاطها التّضليلي من جديد، وحتّى بعد إصرار المكذّبين على التّحرّر من فكرة الإيمان بالإله الواحد.

لقد سار على خطى سابقيه من الرّسل، ودعا قومه إلى ذات القضيّة؛ عبادة الله وحده وعدم الشّرك به، مستعملا نفس الأسلوب الّذي فيه من الإستعطاف وإثارة مشاعر الأخوّة والإستمالة ما يحمل على سرعة الإستجابة للدّعوة "يا قوم"، معلّلا دعوته هذه بأسلوب القصر(ما لكم من إله غيره) بجعل الألوهية مختصّة بالله وحده، استحقاقا له على إيجادهم واستعمارهم في الأرض، وبالدّليل الحسّي(النّاقة)[2]، إبرازا لقدرة الله على الخلق، وكمظهر من مظاهر رحمته في تسخير مخلوقاته للإنسان.

وإذا كان الخطاب القرآني-من خلال الآيتين- في مقام التّذكير بمظاهر النّعم كما في خطاب نوح وهود عليهما السّلام، فلأنّ ذلك يعدّ أسلوبا من أساليب التّربية المؤثّرة في القصّة القرآنية.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(61).

[2]- قال تعالى:(ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) سورة هود، الآية(64).

الأمر الّذي يدفع بالمخاطب إلى الإمتثـــال لأوامـــر ذي العـــزّة واجتناب نواهيه، وطاعة رسله فيما يبلّغون عنه.
ولذلك تأسّس خطاب النّبي صالح على أساليب الأمـــر المناســـبة لمقام الدّعوة الّذي يقتضي الإلحاح في الطّلب إليها، وهي أساليب موصولة في هذا الخطاب بالرّوابط، بما يفيـــد التّعليـــل كالفـــاء "فاستغفروه"؛ إشارة إلى أنّ هذه النّعم الّتي تقرّرت في الخطاب، تقتضي "عدم البطء في الإستغفار وضرورة الإسراع إليه"[1].
وبما يفيد العطف مع التّراخي كثمّ "ثمّ توبوا إليه"، كإشارة إلى مدّ حبل الإستغفار زمنا طويلا بمراخاة الإستغفار والتّوبة، حتّى يأخذ الإستغفار حظّه من تطهير النّفس المؤدّي إلى الإقلاع من الذّنب، والنّدم على ما فات، والعزم الأكيد على عدم العودة. ممّا يجعـــل هذه الأوامر تتقاطع- في سياق الإلتماس والنّصح- مع غـــرض التّرغيب.
والتّذكير بالنّعم في النّهاية أسلوب يكثر فـــي مقـــام التّرغيـــب، لارتباط النّفس الإنسانية بالنّفع والفائدة، وقد أكّده التّعبير القرآني بجملة القصر الّتي تفيد الإختصـــاص، وذلـــك بتقـــديم الجـــار والمجرور على الحال "ناقة الله لكم آية".
وقد كانت مصدرا من مصادر ارتزاق قومه، فلمّا عقروها تعنّتا واستكبارا، حقّ فيهم أمر الله بتسليط العذاب عليهم، فلجأ إلى التّهديد فخرج أمره عن سّياق النّصح إلى معنى التّخويف والتّرهيب، قال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً

[1]- د/عبد الصّمد عبد الله محمّد، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، المرجع نفسه، ص:203.

فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

وقد وصف العذاب في الآية بالقرب، ليدلّ على شدّة تبرّم النّبي صالح وضيقه بقومه، وليتّفق مع لهجة الغضب في خطابه بما يوحي بالتّرهيب من عذاب مستعجل، عبّرت عنه لفظة "يأخذكم" بما يوحي بالوصف الأليق للقدرة الإلهية، إذ في الأخذ "حركة أشدّ من المسّ أو الوقوع "[2].

وواضح أنّ تعاقب أسلوب النّهي مع الأمر في خطاب النّبي صالح عليه السّلام، قد أفاد التّدرّج في النّهي عن المساوئ المتأصّلة في قومه، على نحو يشعر بمدى تمكّن المنهي عنه في نفوسهم، كما تطلّب موقف الجدال بينه وبين قومه، كثرة الرّوابط للدّلالة على كثرة الطّلب، وللتّعبير عن موقف الرّفض والتّكذيب، فالواو –في الآية– وقعت موضع عطف النّهي "لا تمسّوها" على الأمر "فذروها"، للمبالغة في النّهي عن فعل السّوء، وللتّأكيد على تكرار الطّلب بالفعل وبالكفّ عن الفعل. كذلك وردت فاء التّعقيب المشعرة بالحدّة والسّرعة في الأحداث المتلاحقة، للدّلالة على الإلحاح في الدّعوة والإصرار على التّبليغ، حتّى بما لا يتماشى وروح النّبوّة السّمحة، الّتي اقتضى مقامها هذا أن يكون أسلوبها

---

[1]– القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(64-65).

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، ص:1908.

بهذه الخشونة، جريا مع طبيعة العقول المتحجّرة والقلوب المتجمّدة، والنّفوس المريضة. وكانت الصّاعقة، فسقط القوم صرعى وطوي مشهدهم من الواقع.

البعد الأخلاقي في خطاب النّبي لوط(عليه السّلام):

لمّا كانت القصّة القرآنية-فنّيّا- لا يلتزم فيها السّرد القصصي، ولا يقصد فيها عرض الحدث لذاته ولا الشّخصية لذاتها، بل لاستجلاء العظة والعبرة من خلال هذا الأنموذج مع ذلك الحدث، فإنّ الخطاب القرآني في سورة هود لم يعرض من قصّة إبراهيم عليه السّلام إلاّ ما يخدم الغرض من القصّة، وهو تسلية النّبي محمّد صلوات الله عليه، وتثبيت قلبه.

فإبراهيم-عليه السّلام- النّبي المتفرّد بمكانة خاصّة بين أنبياء الله، من حيث أنّ الله ابتلاه ببلاء مبين فاق قدرة البشر، وأنّه جعله إماما للنّاس وجعل في ذريّته النّبوة والكتاب، أتى ربّه بقلب سليم فاتّخذه خليلا، وهو النّبي الموصوف في الآية الكريمة بالصّبر والتّأنّي والتّقوى، يجادل الملائكة في مصير قوم لوط، قد عرض التّعبير القرآني فضائله هذه في سياق سردي تذكيري، اتّخذ منحى تبشيريّا. قال تعالى:﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[1].

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(74-75).

فالسّرد القصصي هنا ينسجم مع الغاية التّأثيرية، وهي التّأسّي بشخص النّبي في موقفه ذاك، والإقرار بصدق الكلام المعبّر عنه عن ذلك الموقف، والمصوّر لتلك الشّخصية.

وإذا كان الخطاب القرآني قد اتّخذ صيغته التّقريرية السّردية من خلال قرائن لغوية ممثّلة في الأفعال الماضية الّتي تفيد تحقيق الوقوع، وأداتي التّوكيد "إنّ " و "لام التّوكيد" (إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب)، فإنّه-من جهة أخرى- خطاب متجدّد على مستوى مجادلة النّبي إبراهيم الملائكة في قوم لوط، "وهو ابن أخيه النّازح معه من مسقط رأسه"[1]، يلمس نفوس قومه من جانب التّقوى، وقد كان قوم لوط أهل فساد، يأتون الفاحشة بجانب الكفر بنعم الله؛ يأتون الرّجال من دون النّساء ويقطعون السّبل، فبعث فيهم نبيّهم لوطا عليه السّلام، ينكر عليهم مساوئهم الخلقية، داعيّا إيّاهم إلى مكارم الأخلاق، جاعلا من رسالته إليهم حربا على الشّذوذ والإنحراف، وتقويما للإعوجاج الخلقي.

ولتأصّل ذلك المرض النّفسي فيهم، بدأ لوط دعوته بإنكار القبح لفظاعته وخطورته على الحياة الاجتماعية، ولما فيه من خنوثة ومخالفة لمقتضى الفطرة، وتهديد للجنس البشري بالإنقراض.

فقد كان يلين معهم فيعرض عليهم بناته قصد الزّواج، وهنّ مثال للطّهارة والنّقاء، من منطلق التّرغيب في اللّذة الطّبيعية السّليمة، وجعلها فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطّلها، ويخاطبهم بأسلوب مفعم بالرّفق واللّين، معطيا النّموذج الواقعي للإنسان الّذي ينسجم مع رسالة الله في الإنتصار على النّفس في

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، ج4، ص:1912.

نوازعها الغريزية وشهواتها الجنسية. قال تعالى:﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾[1]؛ إنّه النّداء لإحياء الضّمير الإنساني وإقامته رقيبا على أعمال المرء في كلّ ما يأتي من الأمور وما يدع، وإنّها الدّعوة الواحدة في أصلها، وفي اتّجاهها إلى توحيد الله وحده وإخلاص العبادة له. غير أنّ الملاحظ في خطاب النّبي لوط عليه السّلام، هو العدول عن ذلك النّسق الّذي انتظم القصص السّابقة، فلم تأت دعوته على منوال دعوات الرّسل قبله في هذه السّورة، والمبتدئة بالتّوحيد، كون قومه خالفوا الطّبيعة البشرية الموجّهة، وآتوا فاحشة الشّذوذ الجنسي، فزادوا على كفرهم ما يدعو إلى التّهويل والتّشنيع.

وقد علّل الألوسي نقلا عن البحر هذه الظّاهرة عن لوط بقوله: "ولم يأت في قصّة لوط عليه السّلام أنّه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء في قصّة إبراهيم، لأنّ لوطا كان من قوم إبراهيم وفي زمانه، وقد سبقه إلى الدّعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده، واشتهر أمره عند الخلق فذكر لوط عليه السّلام ما اختصّ به من المنع من الفاحشة وغيرها..."[2].

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(78).

[2]- الألوسي، المرجع نفسه، 153/20.

ومن هذا المنطلق كانت دعوة لوط تصبّ في الإطار الّذي يحدّد المفهوم الصّحيح للغريزة الجنسية، الهادف إلى إقامة الحياة على قاعدة طبيعية مستقيمة، تتماشى وحاجة النّوع البشري للتّناسل والبقاء. وما نهيه إيّاهم عن ارتكاب فاحشتهم إلاّ من صميم الدّعوة إلى توحيد الله بالعبادة، واتّقاء عذابه بالطّاعة.
ولعلّ فظاعة الجريمة المهدّدة للوجود البشري هي سرّ تفرّد قصّة لوط في سورة هود، كما باقي السّور الّتي تناولت ذات القضيّة بالأسلوب الإنكاري، وكذا بذكر موعد العذاب ونوعه، ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾[1]. وهنا يكشف السّياق التّعبيري عمّا في كلمة "يلتفت"، وجملة "أليس الصّبح بقريب" المشعرتين بالحثّ على الإسراع، وبالتّأكيد على قرب موعد العذاب، عن المعنى الّذي ينطوي على التّخويف والتّرهيب من سوء العاقبة.
ليأتي مشهد الدّمار المروّع لقوم لوط كضرب من ضروب التّهويل، يرسم صورته الأسلوب التّقريري الّذي يجعل تغيّر المعالم الطّبيعية وقلبها، "أشبه بتلك الفطرة البشرية المقلوبة

[1]– القرآن الكريم، سورة هود، الآية(81).

المرتكسة من قمّة الإنسان إلى درك الحيوان"[1]، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

منهج القصّة في تأصيل أخلاق التعامل:

لقد كان النّبي شعيب-عليه السّلام- منسجما أكثر مع القاعدة الإلهية، التّي تعتبر العدالة في التّعامل بين النّاس عاملا من عوامل تحقيق التّوازن في حياتهم؛ منطلقا في دعوته إلى قومه مدين من قاعدة التّوحيد، كونها أساس العقيدة، قال عزّ من قائل:﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، ص:1915.

[2] - القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(82-83).

بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ ﴾[1]، إنّه الخطاب نفسه المتكرّر على لسان إخوانه من الأنبياء/ نوح، هود، صالح/؛ المتغيّر فيه هو القيمة الأخلاقية في الدّعوة، وأمّا الثّابت فهو ارتباط هذه القيم بقضيّة التّوحيد والألوهية في أفقها الدّلالي.

إنّ الوجه الآخر للدّين في رسالة النّبي شعيب، أنّه أسلوب للحياة والتّعامل الخاضع للمفهوم الإنساني والأخلاقي. ومن ثمّ كانت نظافة النّفس وطهارة القلب وشرف المعاملة هي مقصد النّبي في خطابه، إذ أنّ العقيدة لا تتأسّس إلاّ على قاعدة المعاملات الأخلاقية المتّصلة في بعدها الدّيني بالله. فهو يبيّن لقومه أنّ في امتثالهم لأوامره، واجتنابهم لنواهيه، نفعا لهم وخيرا إن كانوا مصدّقيه.

لذلك جاء خطابه–في الدّعوة إلى عبادة الله وحده– قويّا مؤكدّا بتقديم المسند، الجار والمجرور "لكم" على المسند إليه "من إله"، وبدلالة أسلوب القصر بالنّفي والإستثناء "مالكم من إله إلاّ غيره"؛ محقّقا تأثيره في التّصوّر الأخلاقي من خلال نهيه عن الفساد(لا تنقصوا المكيال والميزان)، وتكرار الدّعوة بالأمر(أوفوا المكيال والميزان بالقسط)، وإتباعه بالنّهي(ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين)، من قبيل الإلحاح على ترك المفاسد،

---

[1]– القرآن الكريم، سورة هود، الآيات(84-86).

والتّعليل بعدم حاجة قومه إليها، كونهم على الخير الوفير الّذي يغنيهم عن التّطفيف.
والإشارة–في الآية الكريمة– إلى ماهو خير وأبقى، ضرب من ضروب التّرغيب في الرّبح الحلال بعد إيفاء المكيال.
ومن ثمّ، فإنّ في طريقة التّعبير عن معاني الدّعوة، ما يخدم غرض القصّة؛ وهو أخذ العبرة من الحدث، إذ في تقديم الأمر بالوفاء طلب لتحقيق الأمانة في قومه، وفي لفظة "أشياءهم" تجاوز في مدلولها لمعنى المحسوسات إلى الأعمال والصّفات وغيرها. وفي تقديم الظّرف "في الأرض" على الحال المؤكّدة "مفسدين" إيحاء بالإهتمام به لأنّه محل الإفساد، وأنّ أثره يكون ظاهرا منتشرا، ممّا يؤدّي إلى انتزاع الأمن عن النّاس واختلال التّوازن في الحياة[1].
فالقضيّة الّتي طرحها النّبي شعيب تعطينا الفكرة الواضحة عن هذا المفهوم، من خلال ما تميّز به قومه من غشّ وغضب وإفساد للرّوابط الإجتماعية، حيث أنقصوا في المكيال والميزان وبخسوا النّاس أشياءهم. فجاءت دعوة شعيب لترفض الحريّة الإقتصادية الّتي لا تخضع للمفهوم الإنساني والأخلاقي، بل لتضعها ضمن نطاق مصلحة الإنسان، ووفق ما يحقّق التّوازن في الحياة.
ولمّا كانت الممارسة التّجارية لدى قوم شعيب لا تتحرّك إلاّ بفعل دوافع المنفعة الشّخصية، ممّا يشعر بفساد النّفوس والضّمائر ومن ثمّ فساد الحياة، وكانت الفطرة الكونية تقتضي التّوازن في هذه الحياة على قاعدة توحيد الله وعبادته وتنفيذ شرائعه في كلّ شأن من شؤونها، حرص الخطاب القرآني في دعوة شعيب على أن يجري على نسق قصّة صالح عليه السّلام، القريبة من قصّة

[1]– د/عبد الصّمد عبد الله محمّد، خطاب الأنبياء في القرآن، المرجع نفسه، ص:177 .

شعيب زمنيا، حتّى لتشترك معها في نوع العذاب، وفي العبارة عن هذا العذاب زجرا وإنذارا لهم. فكان في تذكيره إيّاهم بمصارع المخالفين لرسلهم، المشركين بربّهم، ما يبعث على التّرهيب، قال تبارك وتعالى:﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ ﴾[1].

ولعلّ النّسق التّعبيري بطريقته التّقريرية-على ضوء الآية الكريمة-، وسوقه للدّليل الحسّي على هلاك المكذّبين بالدّين، والتّصوير الحسّي لقدرة الله على إتيان هذا الهلاك، ما يكشف من زاوية أخرى عن تمسّكهم برفض النّبوّة، واحتكامهم إلى المنطق الفاسد في المعاملة، فأظهر-من منطلق الموقف الرّسالي- عدم اكتراثه بهم، ووثوقه من وعد الله بنصرته الّذي حقّ وعيده، ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(89).

تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾[1]. فكان ما يناسب تكذيبهم وتعنّتهم، الإستفهام الإنكاري التّوبيخي المشوب بالتّعجّب (أرهطي أعزّ عليكم من الله واتّخذتموه وراءكم ظهريا)، وجملة(إنّي معكم رقيب) المفيدة لتوقع الإنكار، بعدما استيقن إصرارهم على الكفر والتّكذيب.

إنّ الأمانة والعدالة في التّعامل بين النّاس تعدّ من صلب العقيدة في خطاب شعيب، والتّحلّي بها إخلاص لله بالعبادة، وأنّ الحقيقة الّتي ينشدها خطاب (خطيب الأنبياء) شعيب، وغيره من الأنبياء السّابقين صلوات الله عليهم جميعا في سورة هود، هي أن يرتقي الإنسان في درجات الكمال الإنساني، وأن تتجمّع في شعوره وتصوّره وسلوكه كلّ الإستعدادات للتلقّي والإستجابة لله ورسله، ممّا يتيح له تذوّق الحياة، وتحقيق وجوده من خلال ما تنشئه العقيدة في نفسه من قوّة.

كما أنّ اهتمام الدّين بقضيّة الإنسان لا يقف عند حدود حفظ المال وعدم العبث به في التّظاهر الكاذب، ومحاربته للأمراض النّفسية، بل يتعدّاه إلى كلّ ما من شأنه أن يخلق التّوازن في الحياة، وينظّمها بجميع جوانبها.

وعلى ضوء ذلك وقفت دعوة شعيب ضدّ الممارسات المنحرفة بغية تقويمها. فموقفه من عشيرته مدين–وقد اتّصفت أيضا بالقوّة والشدّة، واستحكمت فيها غريزة الجشع والطّمع– جعل أسلوبه يتّصف بالقوّة والشدّة في مواجهة استغلالهم الإقتصادي من خلال

[1]– القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(92-93).

التّطفيف في الكيل والميزان، ذلك ما تمثّله كثرة النّواهي في خطابه، وإن كان المقام يقتضي الإستعمال القليل لهذا الأسلوب في خطاب الأنبياء، لما فيه من الحدّة والزّجر والتّحذير.

ومن ثمّ فالأخلاق الفاسدة المتأصّلة في قوم مدين، تحتاج في اجتثاثها تجاوز التلطّف والإشفاق واللّين في الدّعوة، إلى الزّجر والتّخويف والتّرهيب.

إنّ ما جاء به القصص القرآني من توجيهات دينية لكلّ ما جاء به هذا الدّين من مبادئ وعقائد، ولكلّ ما أنكره من عادات وعبادات باطلة، نحسّه أغراضا وأهدافا بين ثنايا هذا القصص، تجليه تلك المعاني الحكيمة فيه، الرّامية إلى زحزحة المكذّبين عن طريق الإنذار والتّخويف، وجعلهم في صفّ المهتدين. وعليه فقد اعتنت القصّة كثيرا بأهميّة الإيمان باليوم الآخر، واتّجهت نحو تصوير مشاهد القيّامة، كما أوحت لنا بذلك قصّة النّبي موسى مع فرعون ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾[1]. وقد تحدّث الخطاب فيها عن التّطاول على حقوق الله والإعتداء على خلقه سبحانه، والتّسلّط على المستضعفين، والوقوف في وجه النّاهين والتّآمر عليهم.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآيتان(98-99).

فسياق القصّة–هنا– يومئ إلى الإبقاء على الأسلوب الوعظي الذي يرتكز على التّخويف والتّرهيب من عذاب الله، في نطاق التّذكير بمصرع فرعون وملئه.
وقد عبّرت عنه الآية بصيغة الماضي الدّال على الدّم(أوردهم، وبئس) إشعارا بما يفيد استحالة دفع ما تحقق وقوعه، ممّا يخلق شعورا عند المتلقّي بضرورة الإبتعاد عن مواطن الإنحراف.
ولأهمّية القضيّة/توحيد الله والخضوع له/ "عمّرت القصّة القرآنية بأسلوبها قلوب المخاطبين بروح الرّجاء، حتّى ساقتهم إلى النّزول بفناء المولى تبارك وتعالى، وضربت بسياط التّخويف والزّجر والتّرهيب وجوه المعرضين عن حضرته"[1].
إنّ القصّة القرآنية بهذا المفهوم لها صورتها الأدبية الكاملة، "يجد فيها كلّ ذوق ما يلائمه، ولكلّ امرئ ناحية يتأثّر بها، ويستجيب لها..."[2]. إذ أنّ في حكيها للأحداث الغابرة في التّاريخ، وتبيانها أنّ ما أنذر الله سبحانه به من العذاب، لهو الحقّ الّذي وقع.
ومن ذلك يتجلّى لنا أنّ وعيد المكذّبين وتخويفهم، من المعاني الجليلة والحكم الكريمة في القصّة، تتمثّل في التّخفيف عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم ومن معه من المؤمنين، ومن الأساليب العمليّة الهامّة في زحزحة الضّالين إلى صفوف المهتدين.
فالإعتبار بالتّخويف، إنّما يلتقي في أفقه الدّلالي بما ساد ذلك الواقع الّذي نزل فيه القصص، والمشتغل بالكفر. وقد جرى على أهله التّعصّب، وغشي عليهم الجهل، وعميت بصائرهم، فاشتدّ

---

[1]– أبو حامد محمّد بن محمّد الغزالي، إحياء علوم الدّين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت–لبنان، 1998، ط3، ج4، ص:187.

[2]– د/سعيد عطية علي مطاوع، الإعجاز القصصي في القرآن، دار الآفاق العربية، القاهرة–مصر، 2006، ط1، ص:35.

غيّهم وعدوانهم وتصدّوا لدعوة النّبي، فجابههم بما يكسّر غلظتهم، ويردع كبرياءهم، ويحوّل عنادهم إلى انقياد.
وإذا بالقصّة تخاطبهم بدلالاتها في بعض ما يجري على سننهم، دون مخالفة الحقيقة والواقع، وتحقق بأسلوبها اتّساقا مع الإتّجاه والغرض موضعا العبرة، حتّى جمعت- بامتياز- جميع صور التّعبير وتفرّدت في كلّ ألوانه، وصارت من زاوية التّعبير الفنّي وسحر البيان وقوّة التّأثير، مناط الإعجاز. بحيث أنّ أسلوبها يتردّد مع النّفس فيحاكي خلجاتها، وقد يهزّها ويعصف بالوجدان، ولقد ورد مورد البراعة- فيما ذكرناه-، وصف المولى تبارك وتعالى:﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾.

هكذا هي سورة هود عليه صلوات الله وسلامه، تستعرض حركة العقيدة الإسلامية في التّاريخ البشري، وتقرّر حقيقة العبودية لله وعدم الشّرك به، إنطلاقا من عرض مواقف الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، في تلقّيهم للإعراض والتّكذيب والتّهديد، ممّا اقتضى تفرّد سورة هود بطريقة عرض خاصّة يطبعها "الإرتفاع والفخامة في الإيقاع، والسّرعة والقوّة في النّبض، ولألاء شديد في التّصوير والحركة"[1]، فتناسبت في موضعها مع جوّ المرحلة الّتي عاشها النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وما لاقاه من تعنّت قريش. ولغرض يتعلّق بتثبيت قلب الرّسول الكريم محمّد، والتّسرية عنه، على أن يصير المدلول الّذي تخلص إليه خاتمة

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، ص:1843.

سورة هود، هو توجيه الرّسول الكريم إلى مواجهة المشركين بالنّتائج النّهائية المستخلصة من هذا القصص، ومن مضمون الكتاب الّذي جاءهم به في النّهاية.

قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

[1]- سورة هود، الآيات(103-108).

خـــاتمة:

العلاقة بين أسلوب التّرغيب والتّرهيب كثنائية ضدّية متكاملة الدّلالة في سورة هود(عليه السّلام):

إنّ القصّة القرآنية حقيقة من حقائق الحيـــاة، تـــروي أحداثا تاريخية واقعية، وتعرض لوحات لماضي الإنســـانية فـــي صراع الخير والشّر، وتهدف إلى بعث المثال من التّاريخ لإثارة الإنفعالات المؤدّية إلى الهداية والإيمان، والإستفادة من الأحداث التّاريخية في التّربية ومعالجة النّزعات النّفسية فـــي الإنســـان، وأمراض المجتمع الّذي يعيش فيه، بما لتلك الأحداث مـــن قـــوّة مفروضة على النّفس، تحدث فيهـــا انصـــهارا ووعيـــا ويقظـــة وإحساسا[1].

وقد حققت/القصّة/ صدقها وواقعيتها وأصالتها تلك من كـــون أنّ القرآن الكريم جاء مصدّقا لما في الكتب السّـــماوية مـــن حكـــي لأخبار أنبياء بني إسرائيل، كما قال تعالى مخاطبا نبيّه الكريم:﴿

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن

[1]– د/سعيد عطية علي مطاوع، الإعجاز في القرآن، المرجع نفسه، ص:274.

رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[1]، ومن عرض لقصص الأنبياء العرب كقصّة هود مع قوم عاد، وصالح مع ثمود...، وهي أقوام بائدة صارت آثارها بعد ذلك تشكّل جزءا من تراث العرب زمن النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فكان لهذا الصّنف من القصص مكانه الخاصّ في مسيرة الدّعوة المحمّدية، ليس من حيث أنّه يلتقي معها في نفس الطّابع الّذي ميّز ظروف تلك الأحداث الخاصّة بحياة الأنبياء وأقوامهم، والفترة العصيبة الّتي عاشها الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم مع قريش فحسب، بل لأنّه عرض قصص تلك الأقوام بطريقة تشخيصية توضيحية جعلت القصّة تشكّل معلما من معالم السّيرة النّبوية.

وبالمعنى المجمل فإنّ القصّة القرآنية من حيث أنّها وسيلة من وسائل التّبليغ في الوحي، تتضمّن دلالة صدقها في ذاتها "والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتّحاد الدّليل والمدلول فيه"[2].

واتّحاد الدّليل والمدلول في القصّة القرآنية يحيلنا إلى معنى التّماسك في النّص القرآني بوجه عام وفي القصّة القرآنية خصوصا، على الرّغم من أنّ كلّ قصّة من القصص القرآني "ذات شخصية متفرّدة، وذات ملامح متميّزة، وذات منهج خاصّ،

2- القرآن الكريم، سورة يونس، الآية:(94).

1- عبد الرّحمان أبو زيد وليّ الدّين ابن خلدون، المقدّمة(نسخة محقّقة)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2003، ط1، ص:137.

وذات أسلوب معيّن، وذات مجال متخصّص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضيّة الكبيرة"[1].

أعني بذلك أنّ بنيتها محكمة بعدّة عناصر، وبتضافر مجموعة من العلاقات. فعلى مستوى المعنى تبرز وحدة الموضوع من بين جوانب التّماسك في النّص القرآني من حيث أنّه يرتكز على قضيّة أساسية في هذا الدّين، هي قضيّة العقيدة في قاعدتها الرّئيسية... الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة.

وهذا جليّ في السّور المكّية الّتي تتحدّث عن قصص مختلفة من قصص الأنبياء، وقد جمعها إطار عامّ هو أنّ الظّروف المنسوبة إلى كلّ قصّة يمكن توحيدها في الدّعوة والتّكذيب، وأنّ هذه القصص عبرة لرسول الله صلوات الله عليه أيضا.

كذلك ما دامت القصّة خطابا واقعا بين التّأثير والتّأثّر من قبل الواقع الذي نزلت فيه، فإنّ وظيفتها التّواصلية في هذه الحال تقتضي وجود عنصر مشارك في هذه العمليّة، وهو المتلقّي لاستقبال الخطاب، والمهيّأ أيضا لاستكمالها. بمعنى أنّ النّص القصصي "لا يصبح له وجود إلاّ عندما يتحقّق، وهو لا يتحقّق إلاّ من خلال القارئ، و من ثمّ تكون عملية القراءة هي التّشكيل الجديد لواقع مشكّل من قبل"[2].

والمتلقّي هنا متعدّد ومتنوّع، فهو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والرّسل جميعا، والمؤمنون والكافرون والمنافقون والنّاس كلّهم.

وبالتّالي فاختلاف حالات التلقّي عند كلّ طرف من هذه الأطراف يستوجب أيضا تنوّعا في الخطاب، على نحو ما جاء في سورة

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع نفسه، ص:124.

[2]- نبيلة إبراهيم، مجلّة فصول، عدد1، ص:102.

هود موضوع البحث، حيث أنّ خطاب الأنبياء لأقوامهم وطبيعة الحوار الدّائر بينهما على مدار السّورة، يكشفان لنا عن قدرة المتلقّي الأوّل/النّبي/ في فهم الخطاب وتفكيك شفراته- من جهة، وعن نسبيّة هذا الفهم لدى المتلقّي الثّاني/الإنسان/ لذات الخطاب- من جهة أخرى-.

ومن هذا المنطلق فإنّ قراءتنا للقصّة القرآنية الّتي تجعلنا نقترب ولو قليلا من فهم الأوّلين لها، أو لنقل توجّهنا نحو ذلك الفهم، تبقى سلبيّة ما لم ندرك تلك العناصر ونفكّ تلك العلاقات الّتي تحكم النّص القصصي، والّتي جعلت منه بناءا فنيّا متلاحما، وهي عناصر دلالية وشكلية تحكم بناء النّص داخليّا وخارجيّا.

فأمّا على المستوى الأوّل، فإنّ الفائدة المحققة من معرفة السّياق الّذي جاءت فيه القصّة، أي معرفة سبب نزول سورة هود، هي الحكم بالتّرابط والتّلاؤم بين القصص الواردة في هذه السّورة. ذلك أنّ السّياق الّذي جاءت فيه واحد، وأنّ الغرض الّذي سيقت له أيضا واحد، وهو التّسلية عن النّبي جرّاء ما عاناه من طرف قومه وتقوية عزيمته على مواصلة الرّسالة.

كما أنّ عرض أكثر من قصّة في سورة واحدة يهدف إلى تحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكوّنة للنّص، فهي في سورة هود تشكّل لحمة الموضوع في السّورة من حيث أنّها تستعرض لحركة العقيدة الإسلامية في التّاريخ البشري كلّه من لدن نوح عليه السّلام إلى عهد محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ومن حيث إبرازها لمواقف الرّسل، وكيف واجهوا تكذيب وتهديد أقوامهم بالصّبر والثّبات، وتأكيدها على رعاية الله لرسله ونصرته لهم وإهلاكه للمكذّبين.

ومن أجل تثبيت هذه المعاني و تعميقها في النّفوس البشرية احتوى هذا القصص الكثير من التّرغيب في خير الدّنيا والآخرة لمن آمن بالله ووحّده، والتّرهيب بالحرمان من هذا الخير لمن أعرض عن عبادته وكفر به، فكان التّذكير بالنّعم و لفت الأنظار إلى آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق، والتّحذير من العذاب وسوء العاقبة.

وقصص هذه السّورة (هود) في مجمله يبيّن لنا مضامين الدّعوة، من توحيد في العبادة والتّشريع، وإقرار بالبعث والجزاء، وبالرّسالة الخاتمة وأحوالها، وما يعتروها من لين مرّة ومخاشنة مرّة أخرى.

كما أنّ هذا القصص لم يكن مفصولا- لا دلاليا ولا شكليا- لا عن مقدّمة السّورة (من الآية:1 إلى 24)، والّتي تضمّنت عرض هذه الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية، وجاءت في نفس الوقت بيانا لطبيعة الرّسالة وتقريرا لحكم الفصل بين الفريقين من المخاطبين ممّن آمن وعمل صالحا، ومن افترى وكذّب وعمل طالحا، ولا عن الخاتمة (من الآية:100 إلى 123) الّتي اشتملت على تعليقات وتعقيبات متنوّعة، مبنيّة على ما سبق في سيّاق السّورة من المقدّمة ومن القصص.

وقد جاء فيها تأكيد على صدق وواقعية هذا القصص، وتصوير لمصارع الأقوام المكذّبة برسالات الحقّ، ودعوة النّبي صلوات الله عليه إلى الثّبات والإستقامة بمن معه من التّائبين المصلحين، وترك أمر الضّالين لذي القوّة المتين.

إنّ سورة هود- من هذا المنطلق- تبيّن لنا طبيعة منهج هذا الدّين في أنّه يكشف عن نهاية الطّريق للنّاس، ويريهم معالمه في

مراحله جميعا، كما يفاصل بينهم بناءا على تصوّراتهم وتقديراتهم الإعتقادية.
إنّنا نقرأ فيها تضحيات هؤلاء الرّسل من أجل تحرير البشريّة من عبادة الأصنام، وتخليصها من وساوس النّفس والشّيطان، والإرتفاع بالحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الّذي أراده الله للإنسان، ليصير في موضع مطابق للحقيقة الكونية، وفي قمّة تناسقه مع مظاهرها كما تناسقت مقاطع هذه السّورة.
وما يدعّم هذا الرّأي(التّناسق) هو افتتاحية السّورة ذاتها ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[1].

فسورة هود جزء من كتاب القرآن، تناولت المبادئ الأساسية للكون الّتي تناولها القرآن بالتّفصيل، ثمّ بوّبت وفق موضوعاتها وبما يفصل ويوضّح ما عرضت له من أسس وقواعد وعقائد.
إنّ موضوعات السّورة شرح لمجمل هو: عبادة الله، وتحديد طبيعة ووظيفة الرّسالة، والعودة إلى الله ثمّ الوعد والوعيد تأكيدا لقدرة الخالق المطلقة ولسلطانه الشامل. وهذه هي أصول العقيدة الّتي أحالت إليها خاتمة هذه السّورة بمتنوّع من التّعليق والتّعقيب.
وللتّماسك في سورة هود حضور لا يفسّره اتّحاد هذه الموضوعات وترابطها فيما بينها فحسب، كما دلّت عليه خاتمة السّورة، حيث جاء التّعقيب الأوّل فيها تأكيدا على واقعيّة تلك

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(1).

المشاهد الّتي ذكرها قصصها، واحتوى التّعقيب الثّاني على ما توحي به تلك المصارع من خوف ورهبة، وتضمّن التّعقيب الثّالث تحذيرا للمشركين من قوم محمّد عليه أزكى الصّلاة والتّسليم ممّا لاقته الأمم السّابقة لهم في الشّرك من عذاب، سيكون هو نفسه مصيرهم. بل يبرزه السّياق التّعبيري أيضا من خلال الكشف عن قدرة الخالق وحكمته في جعله النّاس فريقين؛ مطيع ومكابر، مؤمن وكافر. وهنا تبرز العبرة من سورة هود في أنّها في عرضها لمضمون الكتاب أو في سوقها لهذه الأحداث القصصية بهذه الطّريقة الحوارية بين كلّ نبيّ وقومه، مع تبيان نهاية كلّ طرف منهما، مؤدّاه تثبيت قلب الرّسول الكريم والقلوب المؤمنة معه على الحقّ، والمضيّ في الإستقامة والإعتدال، وإقامة الوعد والوعيد على قاعدة ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ ﴾[1]، و﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾[2].

وانطلاقا من ذلك يتّضح لنا المنهج القرآني- على ضوء سورة هود- في التّعبير عن حقيقة التّوحيد في بعدها الدّلالي والشّكلي، حيث أنّ معنى العبادة ومعنى التّشريعات والمعاملات في المفهوم الإسلامي يجب أن تشكّل وحدة متكاملة لا تنفصل الواحدة فيها عن الأخرى، كما هي سورة هود متّحدة في مقاطعها وعناصرها.

---

[1]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(50).

[2]- القرآن الكريم، سورة هود، الآية(2).

ويدخل في هذا المعنى الأسلوب الّذي عبّرت به السّورة عن هذه الحقائق، والّذي حقّق مدلولها في عالم الواقع. فكان بحكم ما تضمّنه من خصائص مسّت العرض كالتّصوير والحوار والمجادلة والتّشخيص والحجاج- من جهة-، ومن خصائص أخرى ميّزت التّركيب كالتّقديم والتّأخير والحذف وبثّ المفارقات الضّدّيّة- من جهة أخرى-، قد شكّل ثنائية ضدّيّة متكاملة الدّلالة في سورة هود عليه السّلام، تتفتّح في شكلها العريض على هذا الحوار الممتدّ على مدار السّورة، سواء منه الدّاخل في خطاب المولى تبارك وتعالى لنبيّه، أو الدّاخل في خطاب الأنبياء لأقوامهم، والمتفاوت بين اللّين والشّدة، بين التّرغيب والتّرهيب. وكان هو منهج الحياة الّذي يسير بها إلى أهدافها الكبيرة إن في حالة الضّعف أو في حالة القوّة.

وبذلك انطلقت دعوات الأنبياء والرّسل عبر التّاريخ البشري من وفي إطار المحبّة المعبّر عنها بالخوف، بالأمر بعبادة الله وحده والنّهي عن عبادة غيره، أو ما جاز الإصطلاح عليه بالتّرغيب والتّرهيب، وقد تضمّنا مدلولا واحدا رغم اختلافهما في الصّيغتين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1- **أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي**، الجامع لأحكام القرآن، دار التّراث العربي، بيروت-لبنان، 1966(أعاد طبعه)، المجلّد الخامس، ج9.

2- **أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشري**، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار المعرفة، بيروت-لبنان، (بدون تاريخ).

3- **أبو الفضل بهاء الدّين محمود الألوسي البغدادي**، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، دار الفكر.

4- **أبو سليمان محمّد الخطابي**، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمّد خلف الله والدّكتور محمّد زغلول سلام، القاهرة-مصر، (بدون تاريخ).

5- **أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرّم بن منظور**، لسان العرب، طبعة دار الفكر، بيروت-لبنان.

6- **أبو الفتح عثمان بن جنّي**، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، دار الهدى للطّباعة والنّشر، بيروت-لبنان، (بدون تاريخ)، ط2.

7- **أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمان بن محمّد الجرجاني**، دلائل الإعجاز، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت-لبنان، 1987م.

8- **أبو الحسن مسلم بن الحجّاج القشري النّيسابوري**، الصّحيح، طبعة دار التّحرير، القاهرة-مصر، 1964م.

9- **أبو حامد محمّد بن محمّد الغزالي**، إحياء علوم الدّين، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت-لبنان، 1998، ط3، ج4.
10- **أحمد أحمد بدوي**، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2007، ط3.
11- **إبن هشام أبو محمّد عبد المالك**، السّيرة النّبوية، تحقيق وضبط وشرح، مصطفى السّقا وإبراهيم الأنباري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة-مصر، (بدون تاريخ)، ج4.
12- **إسماعيل بن حمّاد الجوهري**، الصّحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطّار، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، 1982م، ط2.
13- **إبن فارس**، الصّاحبي في فقه اللّغة العربية وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن يسبح، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1418هـ/1997م ط1.
14- **إبراهيم عوضين**، البيان القصصي في القرآن الكريم، مطبعة السّعادة، القاهرة-مصر، 1977، ط1.
15- **بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشي**، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التّراث، القاهرة-مصر، (بدون تاريخ)، ط3، ج3.
16- **جلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر السّيوطي**، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التّراث، القاهرة-مصر، (بدون تاريخ).
17- **وليد منير**، النّص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997، ط1.

18- **الحافظ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدّمشقي**، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت-لبنان، 1406هـ/1986م، ط8(طبعة جديدة مصحّحة).
19- **كاظم السّباعي**، القرآن كتاب حياة، مؤسّسة الوفاء، بيروت-لبنان، 1404هـ، ط1.
20- **محمّد علي الصّابوني**، صفوة التّفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت-لبنان، 1981م، ط4(منقّحة)، ج2.
21- **محمّد الطّاهر بن عاشور**، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، 1984، ج10.
22- **محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني**، فتح القدير(حقّقه وخرج أحاديثه وفهرسها أبو حفص سيد بن ابراهيم بن صادق بن عمران)، دار الحديث، القاهرة-مصر، 1418هـ/1997م، ط3.
23- **مصطفى صادق الرّافعي**، تاريخ آداب العرب، مطبعة الإستقامة، القاهرة-مصر، 1373هـ/1953م، ط3، ج2.
24- **مالك بن نبي**، الظّاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصّابور شاهين، دار الفكر، 1987م، ط4.
25- **محمّد عمارة**، الدّعوة من خلال القصّة القرآنية، مجلّة منبر الإسلام، العدد11، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، القاهرة-مصر، 1988.
26- **محمّد حسين فضل الله**، الحوار في القرآن، دار المنصوري للنّشر، قسنطينة- الجزائر، ج2.
27- **محمّد عبد المطّلب**، البلاغة والأسلوبية، الشّركة المصرية العالمية للنّشر، لوجمان، 1994، ط1.

28- **محمّد أحمد العزب**، الإعجاز القرآني من الوجهة التّاريخية، دار المعارف، القاهرة-مصر.
29- **محمّد كريم الكواز**، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم،، جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي-ليبيا، 1996م، ط1.
30- **محمّد طول**، الصّورة الفنّية في القرآن، (رسالة دكتوراه)، معهد اللّغة والأدب العربي، جامعة تلمسان-الجزائر، 1995م.
31- **محمّد عابد الجابري**، مدخل إلى القرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، 2006، ط1، ج1.
32- **محمّد الشرباصي**، الأصالة(مجلّة ثقافية شهرية)، عنوان المقال: تأمّلات في القرآن، الجزائر، 1980م، عدد:79.
33- **محمّد العيد رتيمة**، اللّغة والأدب(مجلّة علمية أكاديمية)، عنوان المقال: الآية بين اللّسان والقرآن، معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 1994م، عدد:5.
34- **نصر حامد أبو زيد**، مفهوم النّص(دراسة في علوم القرآن)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء-المغرب، 2005، ط6.
35- **سيد قطب**، التّصوير الفنّي في القرآن، دار الشّروق، بيروت-لبنان، 1980م، ط6.
36- **سيد قطب**، في ظلال القرآن، دار الشّروق، بيرون-لبنان، ط15، 1981م، م4.
37- **سيد قطب**، مشاهد القيّامة في القرآن، دار الشّروق، بيروت-لبنان، (بدون تاريخ).

38- **سمير أبو حمدان**، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدّولية، بيروت-لبنان، 1991م، ط1.
39- **سليمان عشراتي**، الخطاب القرآني(مقاربة توصيفية لجمالية السّرد الإعجازي)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، 1998م، ط3.
40- **سعيد عطية علي مطاوع**، الإعجاز القصصي في القرآن، دار الآفاق العربية، القاهرة-مصر، 2006، ط1.
41- **سعد كموني**، العقل العربي في القرآن، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء-المغرب، 2005، ط1.
42- **عبد الرّحمان أبو زيد وليّ الدّين ابن خلدون**، المقدّمة(نسخة محققة)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2003، ط1.
43- **عمر السّلامي**، الإعجاز الفنّي في القرآن، نشر وتوزيع مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، (بدون تاريخ).
44- **عبد الكريم زيدان**، المستفاد من قصص القرآن للدّعوة والدّعاة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت-لبنان، 1997م، ط1.
45- **عبد الصّمد عبد الله محمّد**، خطاب الأنبياء في القرآن الكريم(خصائصه التّركيبية وصوره البيانية)، مكتبة الزّهراء، القاهرة-مصر، 1998م، ط1.
46- **عبد الوهّاب بن لطف الدّيلمي**، معالم الدّعوة في قصص القرآن الكريم، دار المجتمع، جدّة-السّعودية.
47- **عهود عبد الواحد**، السّور المدنية(دراسة بلاغية وأسلوبية)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان-الأردن، 1999م، ط1.

48- **الفخر الرّازي**، التّفسير الكبير، دار إحياء التّراث العربي، بيروت-لبنان، ط3، ج17.
49- **صبحي إبراهيم الفقّي**، علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق(دراسة تطبيقية على السّور المكّية)، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة-مصر، 2000م، ط3.
50- **قدّور إبراهيم عمّار المهاجي**، مصادر الأدب العربي، جامعة وهران-الجزائر، 1999م، ط1.
51- **قدّور إبراهيم عمّار المهاجي**، مصادر السّيرة النّبوية، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران-الجزائر،1430هـ/2009م، ط3.
52- **الشّيخ طه عبد الله محمّد السّبعاوي**، أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1426هـ/2005م، ط1.
53- **التّهامي نقرة**، سيكولوجية القصّة في القرآن(بحث أكاديمي)، جامعة الجزائر، 1971م.
54- **توفيق الحكيم**، فنّ الأدب، دار الكتاب اللّبناني، بيروت-لبنان، 1973، ط2.
55- **خالد أحمد أبو جندي**، الجانب الفنّي في القصّة القرآنية(منهجها وأسس بنائها)، دار الشّهاب للطّباعة والنّشر، باتنة-الجزائر.

فهـــــــرست

الموضوع **الصّفحة**

مقدّمة
مدخل.....01

الفصل الأوّل:

علاقة القصّة القرآنية بعنصري التّرغيب والتّرهيب:.....15

الفصل الثّاني:

العرض القصصي لقضيّة التّرغيب:
تمهيد:.....57
1- التّشخيص:.....67
2- التّمثيل:.....70
مقاصد أسلوب التّرغيب وتجلّياته:.....75

الفصل الثّالث:

العرض القصصي لقضيّة التّرهيب:
تمهيد:.....91
1- التّقديم والتّأخير:.....94
2- الحذف:.....98
3- العلاقة الضدّية:.....102

مقاصد أسلوب التّرهيب وتجلّياته:.....104
1- التّرهيب المادّي:.....106
2- الوعيد:.....108
3- التّهويل والتّعظيم:.....120
4- إظهار الفارق بين المرغوب فيه والمرغوب عنه:...123

الفصل الرّابع:

الخصائص العامّة لعنصري التّرغيب والتّرهيب في سورة هود:

تمهيد:.....127
المرامي الّتي انطوت عليها القصّة في سورة هود:.....127
1- سماحة النّبي في مواجهة الكفر:.....134
2- التّحدّي والإصرار على التّبليغ:.....142
3- الدّعوة إلى شكر النّعم ومحاربة الفساد:.....145
4- البعد الأخلاقي في خطاب النّبي لوط(عليه السّلام):..149
5- منهج القصّة في تأصيل أخلاق التّعامل:.....153

خاتمة:.....162

قائمة المصادر والمراجع.....170
فهرست